السنة الحادية والستون

تشرين الثاني — كانون الاول ١٩٦٧

الخوري حنا طنوس

رائد الادب المسرحي في الشرق العربي

بقلم اميل ابي نادر

مقدمة

اوَ ليس من العسير حصر الخوري حنا طنوس : الشاعر . والخطيب ، والكاتب ، والواعظ ، واللاهوتي ، والاديب ، بما زخرت به شخصياته المتعددة المتكاملة ، من مواهب وخصائص وثروات ، في دراسة واحدة ؟

بلى . ان ذلك لمستحيل .

فالخوري حنا طنوس

نظرًا لثقافته العامة الشاملة

ونظرًا لسعة اطلاعه على مختلف العلوم والفنون الادبية ،

ونظرًا لتضلعه من اللغات العربية والاجنبية وادابها ،

ونظراً لتضائه نصف قرن . يهذب اخلاقاً . ويبدي ضمائر ؛ ويرشد نفوساً . ويصقل عقولا . ويشحذ ذمغة . واعظاً . وخطيباً . ومعلماً وشاعراً . ومؤلفاً مسرحياً ؛

وهب المكتبة العربية من نتاجه الادبي — وان قل المطبوع منه — ثماراً يانعات . جعلته بين ذباء النصف الاول من القرن العشرين احد اشرق النجوم . وحببا الى القلوب . وشاهد مدة للدرس والبحث والتحليل .

وعلى ذلك ؛ لم يتناوله كاتب ببحث . ولم يخصه اديب بدرس . حتى ليكاد النسيان يعصر اسمه ؛ ولا عمال يطمس اثره .

لذلك . آليت على نفسي . احياء للذكراه ووفاء لبعض فضله . ان اعد هذه الدراسة التي — عرف وفر — لا تتضمن الا خيوطاً من حياته . وخطوطاً من مواهبه وعبقريته ؛ آملاً ان اكون بذلك قد اثرت مواضيع لابحاث . وفتحت مجالات للدراسات وفي واضل واكمل .

وذ الف . بكل تواضع . هذا الاثر . الى من عرفوا الخوري حق طلوس ؛ تذكيراً به . والى من لم يعرفوه . تشويقاً لمعرفته في اثاره . اسأله تعالى . ان يوفقني — والقن التمثيلي . هذه الايام . في مراقي النمو والازدهار — لان اعد دراسة خاصة عن مسرحه .

ناديبا القذا: الذي يكاد يصبح نسياً منسياً. هو احد اشهر اعلام الفن المسرحي . وابرز رواد الادب التمثيلي في النصف الاول من هذا القرن.

هذا املي ورجائي

فلا ضاع رجاء ولا خاب امل .

بيروت في ٢٩ / ٦ / ١٩٦٧

اميل ابي نادر

الخوري حنا طنوس

مولده : نشأته : حياته

لا تذكروني اذا ما شمسكم طلعت ... عند الصباح باعلى قمة القنن
الا تذكروني اذا ما شمسكم افلت ... عند المغيب ترأى بسفح حسن
الا تذكروني اذا كاسانكم لمعت ... بزمّ الرغى فوق هام الصانعي الفتن
قولوا السلام على من عاش منشغفاً ... في حب لبنان طول العمر والزمن
منّي السلام على لبنان في المي ... منّي السلام على لبنان في كفني

هذه بعض ابيات للخوري حنا طنوس من احدى قصائده الرائعات قالها على لسان احد ابطال مسرحياته «يوسف بك كرم» في سويعة من سويعاته الملهيات . فمن يكون هذا العلامة اللبناني الذي قضى حياته كل حياته : يعلم : ويهذب : ويرشد . ويؤلف : ويعظ : ويتغنّى بلبنان وامجاد رجاله وابطاله ؟

اأكتب عن الكاهن الاكمل الذي ادى رسالة سيده . بالايمان . والتواضع واللطف ؟ او عن المعلم الامين الوديع حجة لغة وبلبل منابر : جامع ثقافة الشرقيين الى ثقافة الغربيين والطابع من تفاعلها فيه وتلاقحها ثقافة لبنانية عربية ؟

اأكتب عن الدكتور في الفلسفة واللاهوت والشاعر المخلق ؟ او عن امير المسرحية الذي احيا من دفائن التاريخ ابطاله المغاوير ورجاله الشاهير فخلدهم على المسارح في تمثيليات رائعات خالدات ؟

اأكتب عن الاستاذ المحبوب الذي هذب العقول في جيلين كاملين فافلطها ومقرطها حتى استوت فيما بعد على السدرة في الثقافة والعلم والآداب : فكان تلاميذه مشاعل عبقرية ورجولة ووطنية وانسانية ؟

ليس من اليسير على من لم يعايش الخوري حنا طنوس في مختلف مراحل حياته وتطوراتها ان يصور شخصيته وما ذخرت به من نبوغ وعبقرية ومواهب وثروات عقلية . وهات في تكتم وصمت صباح نهار السبت في

٢٣ آذار عام ١٩٤٦ ودفن في شبه تكتم وعجل. ويكاد يمتلك النسيان حين عجل. لولا قلة من المقدرين لفضله الذين لا تزال تختلج في قلوبهم بقية من عهد وفاء من تلاميذه المقربين الذين يذكرون له مواقف ومواقف، ويرددون من نوادره كل طريف. ويستعيدون ما لا يزال حياً في ذاكرتهم من قصائده شعرت ومسرحياته المترجمات.

وخوري حنا صوس قد لا يكون اشعر شاعر. ولا اخطب خطيب. ولا اعمق من تبحر في نحوه اللاهوتية ولا اقدر مؤرخ. ولا اعمق باحث في الآداب العربية. ولا شهير اديب. ولا ابلغ كاتب. ولا اعمق مفكر. ولا ابرع رياضي. ولا افضل مؤلف مسرحي.

ولكن ان يكون خوري حنا شعراً. وخطيباً. ومؤرخاً. وأديباً. وكاتباً. ومفكراً. ولاهوتياً. ورياضياً. ومؤلفاً مسرحياً. وان تتوافر في شخصيته وتتآلف مواهب الخطابة والشعر والادب والرياضة والتأليف المسرحي. فذلك ما جعله احد اشرق الوجوه في ادبنا العربي المعاصر واحبها الى القلوب. واحد ابرع الشخصيات وغناها حافة على الانتاج الادبي والبعث الفكري.

لذلك سأحاول ان اصوره في هذه الدراسة. صبياً: وفتىً: وتلميذاً: وكاهناً وخطيباً وشاعراً ومؤلفاً مسرحياً وانساناً. وكي لا تكون هذه الدراسة جافة. سأسرد بعض نوادره وطرائفه في سياق البحث.

مولده ونشأته

على علو زهاء خمسماية متر عن سطح البحر. وعلى بعد اثني عشر كيلومتراً عن البترون في محافظة الشمال. قرية وادعة قائمة على جبل كانه سنام جمل. تحيط بها اودية من جهات ثلاث. فتطل على البحر غرباً وتشرف على العديد من قرى منطقتي البترون وجبيل شرقاً وجنوباً وشمالاً.

بيوتها التي لا يزيد عددها عن الاربعين، آهلة بزهاء ثلاثماية شخص: تربط فيما بينهم اواصر الحب: وتشد الواحد الى الآخر وشائج القربى. فكلهم ابناء عم يتحدرون من جد واحد هو الخوري وهبه: بن نادر: بن ديب: بن نوهرا. بن بصبوص المعادي. نزح جدهم الخوري وهبه في اوائل القرن الثامن عشر عن قرية معاد في منطقة جبيل واستقر الى جانب منخفض من الارض تتجمع فيه مياه الامطار ايام الشتاء. فسميت «غميا» هذه النقطة التي حل فيها هذا الضيف النازح عن معاد. واذا اولاده

واحفاده يتاجرون رويداً رويداً املاكاً من سرحال حماده وآل حماده .
ويطحنون الصخور ؛ ويستصلحون الاراضي القاحلة ويستنبتونها عرق الجبين
ويتعبدون تربتها . يستنبتونها خيرات ومواسم . وهم بكثافتهم راضون .

ففي قرية « غوما » هذه . ولد فجر نهار الجمعة في التاسع والعشرين
من شهر حزيران عام ١٨٦٦ لطنوس . بن حنا . بن دبب . بن الخوري
وهبه . وزوجته نعمه ابنة منصور . بن صادق . بن فيانوس . بن الخوري
وهبه طفل سمي حنا تيمناً باسم جده لابيه . ففرح به والداه وشاركهما فرحهما
الاهل والاقارب وسائر افراد القرية .

ونشأ حنا كاترابه عهد ذاك . يقضي وقته بين البيت وجواره . يتلهى
بصلي الدبق للعصافير وتخريب الاعشاش . ومساعدة والديه في قضاء ما
يطلبان منه القيام به .

وينمو حنا في كنف والديه مع اخويه خليل ويوسف وشقيقته خرستين .
صارفاً وقته في اللهو واللعب بالقرد المربوط و « فشختين وقرة » وسواها من
العاب ذاك الزمان ؛ مع ابناء عمه انطون وقيصر وحنا وخليل . وعندما كان
يقسو عليه والداه لعمل شيطاني قام به ؛ كان يهرول الى جده حنا وجدته
وردية ابنة نعمه حنا ابي نادر ؛ فيطعماه من اللوز او الزبيب او القضامي
ما يطيب خاطره ويعيده الى بيته راضياً مسروراً .

ولما بلغ عامه السابع ارسله والده الى كاهن الرعية ليتعلم في المدرسة
مبادئ الكتابة والقراءة . فوالدا حنا ما كانا يعرفان ما يضمر المستقبل
لولدهما ؛ وما كان يمر في خاطرهما ان هذا الولد سيكون اساساً لنهضة علمية
ادبية في قريته وجوارها ومنطقته ولبنان .

فعندما يتمكن حنا (هذا برأي والديه) من توقيع اسمه ومن قراءته «عند
سعد ورد » ومزامير داود . وعندما يصبح اهلاً للوقوف في الكنيسة حول
« القراية » يجاري شباب القرية في تنغيم الصلوات السريانية ؛ يكون في
نظرهما قد بلغ اقصى الحدود التي يطمحان اليها . وكل ما يزيد عن ذلك
نافل ؛ فحنا لا يحتاج الى المزيد من العلم . انه لن يصبح كاهناً ويكفيه منه
هذا المقدار .

كانت المدرسة في « العلية » الواقعة في « حمار جبيل » والتابعة لوقف
مار نوحرا . فكان حنا يذهب الى المدرسة مرتدياً القمباز ، معلقاً بكتفه اليمنى
« الحمال » وفيه الكتب والدفاتر ، شاكاً في زناره اقلام « الغزار » ودواته .

وتوصل حنا الى كتابة الالفباء وتصوير اسمه وقراءة « عند سعد ورد » ومن مزامير داوود « طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة . وفي السنين التوالي حفظ الاجرومية وتعلم قليلاً من السريانية .

الا ان ازدياده المدرسة كان يسبب لوالديه كثيراً من المتاعب وقلق البال . كان الطيش مسيطراً عليه . فقلما يمر نهار دون ان تصلهما من خبار حنا ما لا يخرج ويسر . حنا ضرب زيداً . حنا وقع من الشرفه . حنا اعتدى على حمد رفاقه . وشج راسه بحجر . فولدهما حنا كان عفريتاً يتحرش برفاقه ويقاتلهم ويتغلب حتى على الاكبر منه سناً ويمزق ثيابهم وكثيراً ما كان يسطو عليهم ويستأثر بما لديهم من شهي المآكل من « تين مطبع » و« زبيب » و« صفوف » . ويهرب الى خرائب قلعة « مار جبيل » المجاورة لمدرسته . فيختبئ في اقبيتها حتى اطلق عليه رفاقه اسم « المغنجي » وهو لقب من يسطو على الناس فيسلبهم ما لديهم ويفر من وجه العدالة. وفي جوار خرائب القلعة المذكورة بئر معروفة ببئر مار نوهرا ، تروي الحكايات والاساطير ان والي البترون دفينوس استحضر في اواخر القرن الثالث للميلاد مار نوهرا وشقيقه قانون وشقيقته تقلا وحاكمهم وامرهم بالكف عن التبشير بالانجيل . ولما رفضوا الاذعان لمشيئته وجاهروا بايمانهم ، امر بقتلهم فهربوا الى مار جبيل فلحق بهم مضطهدوهم ، وفي ما كان مار نوهرا فاراً من وجه اعدائه رمى بنفسه في ذلك البئر تخلصاً من شر اللاحقين به ، وهو ما يزال فيه يحضر لمن يرمي في البئر قطعة من النقد . فكان حنا ساعة يكون لديه « بشلك » او « نحاسة » يرمي القطعة النقدية في البئر مردداً « يا مار نوهرا حضار حضار ، يا مار نوهرا حضار حضار ، جايبك من غوما زوار » وتتماوج مياه البئر لدى سقوط القطعة النقدية فيها ، وينعكس راس حنا في المياه بشكل غير جلي ، فيتوهم كما يتوهم سواه ، ان مار نوهرا حضر مستنتجاً ان المعلم لن يعاقبه على اعتدائه على اترابه ، فيبدأ روعه ويطمئن باله ويعود الى المدرسة . اما اذا كان الجو غير صافي الاديم ولا يتسرب نور الشمس الى مياه البئر ويستحضر حنا مار نوهرا فلا يحضر عندما يرمي النحاسة ، فيتشاءم ويتوقع العقاب الصارم من المعلم فيهرب الى خرائب تلك القلعة حيث يتوارى عن الانظار طوال النهار . وحدث له مرة انه بينما كان في خرائب تلك القلعة هارباً من قصاص المعلم وقع نظره على « عش » في شجرة « بطم » نابتة في صخر شاهق يعلو الارض زهاء ستين متراً جنوبي القلعة . الوصول الى العش مغامرة خطرة جداً ، واقل زلة قدم تقضي على

حياة اي مغامر . ولكن كيف يترك العش ولا يرى ما فيه ؟ وبعد قليل من التردد والتريث خلع حذاءه وصعد الى الشجرة وشرع ينتقل من غصن الى غصن ويتطاول حتى تصل يده الى العش . وفجأة انقصف الغصن الذي كان متكئاً عليه وهوى نصف جسمه الاعلى نحو الارض وكاد يسقط من ذلك العلو الشاهق على الصخور لو لم يعلق قميصه وزناره الجلدي بالاغصان . وبعد تأرجح في الهواء بين الارض والسماء . وبعد كثير من الجهد الجهيد تمكن من العودة والنجاة من الموت المحتم .

... وتمضي السنون وحنا يكبر ويتعافى ويشتد ساعده ؛ فيرافق والده ايام العطلة الى الحقل يعاونه في تعهد الارض وحراثتها . ويسمع والده وقد كان « قوالا » ينشد باعلى صوته في الحقل :

« يا شجرة البلدار حاميك اسد
واتكسرت الاغصان من كتر الحسد
نحنا زرعنا القرع جا الغير وحصد
يا حسرتي ردوا القمح لعدالنا »

وكان حنا يأبى الا ان يجاري والده في طربه كما يعاونه في اعماله واشغاله فيصيح مترنحاً :

« يا بنت اربعتعش شعرك جدلي احكي المزح للغير واحكي الجد لي
لو تعرفي بقيابكي شو جد لي مجنون ليلى ما تعذّب مثلنا »

ويعود الاب وابنه الى البيت . ويجتمع افراد العيلة في ليالي الشتاء الباردة حول الموقد يشوون على جمره « البلوط » ، وينضم اليهم الجيران والاصدقاء فيمضون السهرة في لعب « السنكبيل » و « الباصرة » و « المنقلة » او في السماع الى قصة عنتر بن شداد او رواية « الزير ابو ليلى المهلهل » .

وكثيراً ما كان يدفع الاستطراد الى التحدث عن بطولات الاجداد ونوادرهم ، وعن السلف والخلف من اهالي القرية فيتحدثون عن « الخوري نوهرا خطار » الذي رفس الضبع برجله وقتله ، وعن الكتب الضخمة التي ملأ بها خزانته ، وعن « نوهرا بو خطار » الذي ادب « الظابطي » التركي واشبعه ضرباً .

ويتشعب الحديث فيروي البعض البطولات عن يوسف بك كرم وكيف حارب داود باشا وهزم الجيش التركي في اكثر من موقعة . وينتقل الحديث

الى جد اهالي القرية الخوري وهبه: ويعود المتحدثون الشهقرى الى الوراء. متوغلين في الماضي: باحثين في انساب الجدود: من الخوري وهبه: الى ناضر. الى ديب. الى نوهرا. الى المقدم بعبوص جد العائلة الجامع الذي كان ذا قوة وبطش ومثل دوراً كبيراً في العاقورة.

هذه لمحة خاطفة عن الخوري حنا طنوس عهد الطفولة والحداثة وعن البيئة التي نشأ فيها. وقد كان يدور في تلك الايام من احاديث واخبار. كان يعطي اليه كل الاصغاء ويستوعبها ويخزنها في عقله الباطني تزكاً للايام ان تحضرها. وتمحصها. وتصفيها. وتجلو دقائقها.

وبشاء القدر الا يبقى حنا طنوس على ما اقتبس في مدرسة القرية من مبادئ الكتابة والقراءة. وتشاء العناية الالهية الا تتخلى عن مواهب هذا الفتى الفتية فتتركها خاماً بل احبت ان تصقلها وتثمرها وتعدها لتستغل باهر في ميادين العلم والادب والثقافة. فقيضت له مجال الانتقال الى معهد «راتسبون» في القدس حوالى عام ١٨٧٦.

فما يكون معهد «راتسبون»؟ من ارسل حنا طنوس اليه ومن كان يدفع عنه الاقساط المدرسية في ذلك المعهد؟

معهد راتسبون

معهد «راتسبون» انشأته في القدس رهبانية سيدة صهيون (Congrégation de Notre Dame de Sion) التي اسسها تيودور ماري راتسبون.

وهذا الاخير يهودي فرنسي ولد في مدينة ستراسبورج عام ١٨٠٢ ومات عام ١٨٨٤. اعتنق الدين المسيحي عام ١٨٢٧ واصبح كاهناً واسس رهبانية سيدة صهيون عام ١٨٤٢. وكان لتيودور شقيق اسمه الفونس اعتنق النصرانية ايضاً عام ١٨٤٢ فدخل اولاً رهبنة الآباء اليسوعيين ثم الرهبنة التي اسسها شقيقه اي رهبنة سيدة صهيون ونقل مركزها الرئيسي الى القدس حيث انشأت معهداً عرف بمعهد «راتسبون».

وكان هذا المعهد يعلم التلاميذ مجاناً ولا يتقاضى منهم الا اكلاف الكتب والقرطاسية. اما حنا طنوس فقد ارسله الى ذلك المعهد الراهب الدومنيكي الاب اسطفان دوعط عم صالح الخوري دوعط (من قرية معاد في قضاء جبيل) الذي كان، نظراً لما بينه وبين المشرفين على ادارة المعهد المذكور

الخوري حنا طنوس

١٩٤٦-١٨٦٦

من وشائج الصداقة وطيب الصلات . يرسل اليه انسباءه تلاميذ الاسرة المعادية . ويدفع عنهم ثمن الكتب والقرطاسية وما شاكلها ليسير لهم سبل التعلم والتثقف .

وحنا طنوس بانتقاله الى القدس . وتركه الجو الذي كان يعيش فيه . تبرعمت مواهبه وتفجرت نباهته . فاذا هو المجلي بين رفاقه واترابه . تلميذ حاد الذهن . فطن ، لبيب ، يتمتع بذاكرة عجيبة مدهشة وذكاء نادر ادهش جميع معلميه ، حتى ان امبراطور البرازيل دون بادرو الثاني رغب ان يتبنّاه بعد حادث طريف لا بأس من سرده .

حنا طنوس وامبراطور البرازيل

كان امبراطور البرازيل دون بادرو الثاني وهو رجل عميق الثقافة ومن اعظم علماء عصره قد درج على زيارة الاراضي المقدسة كل عام . واثناء زيارته الاخيرة حوالى عام ١٨٧٧ عرج على معهد « راتسبون » لتفقد احواله ومده بالمساعدات اسوة بامثاله من الملوك المسيحيين عهد ذاك .

فاستعرض الملك التلاميذ يحادث هذا وذاك وذلك ، ويطرح عليهم الاسئلة ممتحناً مواهبهم وذكاءهم ، حتى دنا من التلميذ حنا . فامر رئيس المعهد الى الملك ان التلميذ الذي امامه هو من انبغ من عرفهم المعهد واذكاهم وانجبهم ، فضلاً عن ذاكرته الغريبة المدهشة .

وسأل الملك التلميذ حنا قائلاً : يقول حضرة الاب الرئيس انك ذكي وذو ذاكرة قوية . فلك مني جائزة ثمينة ان اثبت لي ذلك وتمكنت من حفظ ما ساقوله .

وشرع الملك يقول « الصلاة الربانية » باللغة البرتغالية ، وحنا مطرق الرأس ، جالس على المقعد الخشبي ، يهز برجليه ويلعب بقلم بين اصابعه . فدنا منه الاب الرئيس ولكزه في خاصرته لافتاً انتباهه الى وجوب شحذ وعيه وذاكرته ، كي لا يسود وجهه ، ويخيب امله فيه . فافهمه التلميذ حنا باشارة باصابعه الثلاث التي ضمها الى بعضها البعض ، الا يخاف (وكان الخوري حنا اثناء سرده هذا الحادث يوضح انه كان لا يمكنه ان ينتبه ويستجمع قواه العقلية الا ساعة يلهي اطرافه كاصابعه ورجليه بشيء ما) .

وما كاد يشبي الملك من الصلاة الربانية حتى اعادها التلميذ بحذافيرها . طار رئيس المدرسة فرحاً واستولت الدهشة على الامبراطور ، فرجا من الاب

الرئيس ان يعلم اهل التلميذ بانه يرغب ان يتبنى ولدهم ؛ وهو مستعد لاعطائهم ـ لقاء حاجتهم له بذلك ـ ما يريدون ويرغبون .

وسافر الامبراطور عائداً الى بلاده منتظراً جواب اهل التلميذ . لكن هذا الملك الفيلسوف العميق الثقافة المشبع بمبادئ فلسفة المدرسة الوضعية «Positivisme» مؤسسها الفيلسوف الفرنسي « اوغست كونت » ما كاد يصل الى بلاده حتى الغى الرق . واعتق العبيد في مملكته عام ١٨٨٨ . عندئذ نقمت عليه الطبقة الاجتماعية السائدة ؛ واشعلت ضده نار الثورة التي اطاحت بعرشه فاضطر الى الاستقالة في ١٥ تشرين الثاني ١٨٨٩ والتخلي عن العرش . والهجرة الى فرنسا حيث توفي عام ١٨٩١ .

والله ادرى بما كان يضمره المستقبل حنا طنوس في ما لو لم يخلع الامبراطور عن عرشه ويوافق والدا حنا على عرض الملك .

وقد ظل حنا طنوس يتمتع طول حياته بقوى هذه الحافظة النادرة ؛ كما سنرى في ما بعد .

وترك القدس عائداً الى لبنان حيث اكمل دروسه العربية وانجزها على يد الاب يوسف ابي صعب في مدرسة مار يوحنا مارون في « كفرحي » . وبعدئذ شرع يدرس في مدرسة الخوري حنا بعبوص في قرية جربتا ؛ ثم في قرية معاد .

ويضيق بروحه الطموح ؛ لبنان . فيسافر الى المكسيك قرب شقيقه مخايل ؛ حيث لم يبقَ الا زهاء سنتين عاد بعدهما الى وطنه حيث شعر بدعوة الى الكهنوت .

قصد البطريرك بولس مسعد يطلب مساعدته في دعوته فلم يكترث له. ثم قصد الخوري اغناطيوس المعادي (من قرية مراح الزيات) سائلاً مساعدته. فرافقه هذا الاخير الى كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت وقابلا الاب جبرائيل اده اليسوعي ؛ راجين قبول حنا طنوس تلميذاً اكليريكياً فيها . فرفض لتقدمه في السن . الا ان عزيمته كانت أقوى من الحواجز والعراقيل . فالح وتشبث بطلبه قائلاً : « لن اخرج من هنا الا جثة هامدة ». عندئذ اذعن لرغبته رئيس المدرسة ، وقبله في عداد التلاميذ الاكليريكيين نهار الخميس في الاول من شهر تشرين الاول عام ١٨٩٠ . وهو شاب غض الاهاب في ربيعه الرابع والعشرين . فنظراً لسنه واتقانه اللغة العربية ادخل الى الصف الرابع واكب على الدرس والتحصيل باجتهاد لا يعرف

الملل ولا الكلل ، حتى فاز بعد شهرين الى الصف الثالث كما تثبت ذلك القيود المسجلة في اختبارات التلاميذ الاكليريكيين في جامعة القديس يوسف في بيروت .

وكان الخجلي في صفوفه بين رفاقه واترابه . كما كان الاول في الفرنسية . الاول في العربية . الاول في الادب . الاول في التاريخ . الاول في الشعر . الاول في الرياضيات حتى حاز على اعجاب جميع اساتذته ومعلميه . وقد كان رهيف الحس . قوي الشعور . دقيق الاحساس يرى ما لا ترد العين ويسمع ما لا تسمعه الاذن .

ابي مات

وقد جرى له عهد تلمذته حادث طريف يجمل بنا ان نرويه . حدث ذلك نهار الاربعاء في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٩٠ ، كان الاكليريكي حنا جالساً في الدرس مكباً على كتبه يدرس امثولاته عند الظهيرة واذا به يطرأ عليه ذهول ، ويضيع في بحران . ويسمع جرس كنيسة رعيته « مار نوحرا » في حمار جبيل يدق دقات حزن ، ويرى الاكليريكي حنا ، بعين البصيرة ، احد اهالي قرية « حمار جبيل » يقف على سطح بيته وينادي قارع الجرس : جرياً على العادات في القرى اللبنانية : سائلاً : من مات ؟ ويجيبه قارع الجرس : طنوس حنا .

وينتفض الاكليريكي من تأثير الصدمة والنبأ المشؤوم ، فيعود من غيبوبته ، ولاوعيه ، وذهوله ، وبحرانه ، مسرعاً الى الاب المناظر قائلاً له . والدمعة في عينيه . « ابي مات ارجو ان تسمح لي بالذهاب الى القرية » . فقال له الاب المناظر متعجباً ساخراً : « هل طرق عليك جنون يا ابني ماذا دهاك من اطلعك على هذا النبأ : كيف عرفت ذلك ؟ » . اجابه الاكليريكي ، واللفظة تتحشرج في نبرات صوته : « انا سمعت دقات جرس القرية وسمعت قارع الجرس يقول ان والدي مات » . فهدأ الاب المناظر روع التلميذ وقال له : « قد تكون تحت تأثير عوامل نفسانية سيطرت عليك وعلى حواسك فتوهمت انك سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت . عد الى مقعدك واستأنف درسك بطمأنينة » .

وعاد الى مقعده وما كاد يكتن رأسه بين يديه ، منصرفاً الى الدرس حتى عاودته الظاهرة ذاتها : جرس كنيسة الرعية في القرية يدق دقات حزن

وشخص من « حمار جبيل » . الشخص ذاته : يسأل من مات : فيجيبه قارع الجرس : « طنوس حنا » .

وينتفض الاكليريكي كمجنون . ويقفز ثانية على المناظر ما رأى رجع متوسلاً اليه ان يأذن له بالذهاب الى قريته لحضور جناز المرحوم وتدفينه . فسمحه المناظر بترك الدرس والتمشي في اللعب . ثم الذهاب الى منامه ليستلقي على فراشه مريحاً بذلك اعصابه .

... وفي اليوم التالي وفد الى بيروت رسول من « غوسطا » يحمل الى الاكليريكي حنا موت والده المفاجئة . وقد ثبت ان الجرس كان فعلاً يدق حزناً في تمام الساعة التي سمع حنا دقاته . وان الشخص الذي قرع الجرس . كان الشخص الذي رآه حنا بعين البصيرة . وان الشخص الذي وقف على سطح بيته في « حمار جبيل » وسأل من مات . كان الشخص عينه الذي رآه الاكليريكي حنا .

ولنبي دروسه متضلعاً من الفرنسية والعربية واللاتينية والسريانية واليونانية وآداب كل هذه اللغات .

وسيم كاهناً صباح نهار السبت في ٢٧ ايار ١٨٩٩ . ونهار الجمعة في ١٦ حزيران من تلك السنة ترك المدرسة الاكليريكية منتقلاً من ميدان العلم . الى ميدان العمل والجد والنشاط . وتأدية رسالته . وكان صباح نهار الثلاثاء في ١١ نيسان ١٨٩٩ قد قدم اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في اللاهوت فنالها بتفوق نهار الاحد في ١٦ تموز ١٨٩٩ على عهد رئاسة الاب كاتان اليسوعي وكان رئيس اللجنة الفاحصة الاب (Augustin Rodet) .

شرع الخوري حنا يدرس ويؤلف ويعظ ويرشد فعرفه الآباء اليسوعيون في بيروت معلم البيان والخطابة (من ١٩٠٠ الى ١٩١٠) ومن (١٩٢٠ الى ١٩٢١) وعرفته اخوية « مار لويس غونزاغا » مرشداً لها . وكاتدرائية مار جرجس المارونية في بيروت واعظاً يتهافت الناس من مسيحيين ومحمديين اليها لسماع عظاته الانسانية . وعرفته معلماً مدرسة « النصر » في كفيفان (من ١٩١١ الى ١٩١٣ ثم ١٩٢٩) فمدرسة ميفوق (من ١٩٢٢ الى ١٩٢٨) : فالكلية الوطنية في باتياس (من ١٩٣٠ الى ١٩٣٣) كما علم اللاهوت في « كرم سده » وفي « مار عبدا هرهريا » وفي « سيدة المعونات » .

وشهرته الادبية حملت ارباب الاسر الكبيرة من مشاهير اللبنانيين واعيانهم على التهافت على الخوري حنا ، يستقدمونه اليهم معلماً خاصاً لاولادهم ،

كما فعل مشايخ آل ابو صعب في « مزرعة بيت ابو صعب » ومشايخ آل رفول في « الجبع » . ومشايخ آل اسطفان في « كفر صغاب » .

وهكذا . على مقاعد معهد الآباء اليسوعيين في بيروت . ومدرسة « الحكمة » في كفيفان . وبين جدران مدارس « ميفوق » والكلية الوطنية في بانياس . وبين « كرم سنده » و « سيدة المعونات » و « دار عبدا هرجريه » . وفي رحاب دور مشايخ آل اسطفان في « كفر صغاب » وآل رفول في « الجبع » وآل ابي صعب في « مزرعة بيت ابو صعب » . هذي تفوساً . وصقل اذواقاً . و « سقرط » افئدة . و « افلاطون » عقولاً . فتتلمذ لديه عدد كبير من مشاهير الرجال . وتخرج منه دفعة سياسة . وفطاحل ادب وعلم وثقافة . وفاضل رجال دنيا ودين . ومشاعل عبقرية روحية ووطنية . أمثال المرحوم الشيخ بشاره خليل الخوري[1] والمغفور له رياض الصلح والاستاذ جورج حيمري . والاستاذ يوسف السودا . والاستاذ يوسف غصوب .

شخصيته

قوي البنية . مديد القامة . ناري النظر . مسحت العبقرية بتنديلها محياه فضاعت قسمات وجهه بين الغبسة الباسمة والبسمة العابسة .

وفي مقلتيه تموجات على الحدقتين فما تعلم اتموجات فرح هي ام تموجات حزن وعلى اسارير وجهه يراقيت من الالم الهاجع .

وجهه نفور لا اثر للعذوبة عليه : وعيناه كانهما امام كارثة او فاجعة . وجبين عريض هادئ فيه حاجبان منبطحان منفرجان تركت بينهما الايام . فيما بعد . اثلاماً عمودية . وخدان ناعمان متكمشان ينخفضان في سفح الانف ليفسحا ميداناً واسعاً لشاربين ضعيفين يعلوان فماً رقت شفتاه وشفتا . وذقن تكسوه لحية كثة الشعر مبعثرة . ما عرفت المشط الا نادراً .

واذنان طويلتان ما انسجتا وراءه التصفير . فكذبتا بذلك صدق علم الفراسة .

وجبة حارت بين السواد وسائر الالوان . تغلف هيكله : يتوسطها زنار

---

١) ذكر الشيخ بشاره خليل الخوري في الصفحة ٤٦ من الجزء الاول من مذكراته « حقائق لبنانية » ما حرفيته : عن لم فضل عليّ الاب حنا طنوس المعادي ، من فيما : معلمي في الصف الاول والاخير ، وهو الشاعر الناثر ومؤلف الروايات المشهورة . وقد اجاز له الاب خليل ادّه ، مدير المدروس العربية ، ان يعطيني دروساً خاصة اكثر من خمس ساعات في الاسبوع لاكمال علميي.

عريض ما عرف الاستقرار مرة في مكان واحد . فهو تارة على الصدر . وطوراً على الوسط واحياناً اعلى .

وزوجان من الجوارب اتفقا على تغليف رجليه واختلفا على اللون والشكل وما ساد الانسجام والوئام بينهما الا نادراً .

منير الرأس على وعي ونضج . رحب الصدر على مودة ومحبة . رضي الطباع على الفة وشهم . يعرف نفسه على غير ادعاء وغرور ويختبرها على غير تجبر وصلف .

ان حسبه الوحيد الذي به اعتز وافتخر اضاف نسباً جديداً من العلم والادب به زها وتغنى .

ان لم اكن بالغنى رأساً لعائلتي فسائلي رأسها بالعلم والادب »

شديد التأثر . سريع الغضب . سريع الرضى ولعل هذه الصفات دليل على سلامة طوية وصفاء قلب .

انفه شيء يغضبه وابسط الامور يفرحه . وان تغضب فبركان يقذف الحمم اللواهب ؛ وان رضي فظل مدلل : على فهم . ساذج على عمق .

طيب القلب : سليم الطوية : سموح رحوم شفوق . الحقد ما تعرف اليه قلبه . والضغينة والموجدة ما عرف صدره فما شكلاً ولونا .

وديع متواضع متواضع ، يعتبر جميع الناس ويحترمهم ويجلّهم : ونظرته اليهم نظرته الى من يفوقونه علماً وادباً وثقافةً ومواهب : ونظرته الى نفسه نظرته الى من هو دون الناس علماً ومقدرةً وذكاء .

مهمل كسول ، لا يعير زيه وثيابه وشكله اي اهمية : فقلما كان يظهر للناس بشكل راقق وزي لائق .

قروي عتيق وجبلي اصيل ؛ ما صقل ذوقه العلم ولا شذبت اميالـه الثقافة : فظل هو اياه من اولئك الجبليين الميامين : طبيعياً في تصرفاته : لا يعرف التكلف والرياء والخداع . ما فكر يوماً ان يعلو سواه او يتعالى على من هم دونه .

عايش اهالي قريته فكنت تحسبه احد الفلاحين المساكين الذين قضوا عمرهم وراء المحول والرفش . وعندما يضمه مجلس ادب تخاله النابغة الذبياني في سوق عكاظ .

كما فعل مشايخ آل ابو صعب في « مزرعة بيت ابو صعب » ومشايخ آل رفول في « الجمع » . ومشايخ آل اسطفان في « كفر صغاب » .

وهكذا . على مقاعد معهد الآباء البسوعيين في بيروت . ومدرسة « النصر » في كفيفان . وبين جدران مدارس « مبغوق » والكلية الوطنية في بانياس . وبين « كرم سنده » و « سيدة المعونات » و « دار عبدا هربرت » . وفي رحاب دور مشايخ آل اسطفان في « كفر صعب » وآل رفيل في « جمع » وآل ابي صعب في « مزرعة بيت ابو صعب » . هذي نفوساً . وصقل اذواقاً . و « مشرع » اذهاناً . و « افتح » عقولاً . فتتلمذ لديه عدد كبير من مشاهير الرجال . وخرج عنه دفعة سياسة . وفطاحل ادب وعلم وثقافة . وفاضل رجال دنيا ودين . ومشاعل عبقرية وروحية ووطنية . أمثال مرحوم الشيخ بشاره خليل الخوري[1] والمغفور له رياض الصلح والاستاذ جورج حيمري . والاستاذ يوسف السودا . والاستاذ يوسف غصوب .

شخصيته

قوي البنية . مديد القامة . ناري النظر . مسحت العبقرية بمنديلها محياه فضاعت قسمات وجهه بين العبسة الباسمة والبسمة العابسة .

وفي مقلتيه تموجات على الحدقتين فما تعلم اتموجات فرح هي ام تموجات حزن وعلى اسارير وجهه بواقيت من الالم الخاجع .

وجبهه تفور لا اثر للعذوبة عليه : وعيناه كانهما امام كارثة او فاجعة . وجبين عريض هادئ فيه حاجبان منبطحان منفرجان تركت بينهما الايام . فيما بعد . اثلاماً عمودية . وخدان ناتئان متكمشان ينخفضان في سفح الانف ليفسحا ميداناً واسعاً لشاربين ضعيفين يعلوان فماً رقت شفتاه وشفتا . وذقن تكسوه لحية كثة الشعر مبعثرة . ما عرفت المشط الا نادراً .

واذنان طويلتان ما انسجمتا وراسه الصغير . فكذبتا بذلك صدق علم الفراسة .

وجبة حارت بين السواد وسائر الالوان . تغلف هيكله : يتوسطها زنار

---

١) ذكر الشيخ بشاره خليل الخوري في الصفحة ٦٤ من الجزء الاول من مذكراته « حقائق لبنانية » ما حرفيته : ثم لم تفصل عني الاب حنا طنوس المعادي ، من غوما ، معلمي في الصف الاول والاخير ، وهو الشاعر الناثر ومؤلف الروايات المشهورة . وقد اجاز له الاب خليل ادة ، مدير المدروس العربية ، ان يعطيني دروساً خاصة اكثر من خمس ساعات في الاسبوع لاكمال علومي .

عريض ما عرف الاستقرار مرة في مكان واحد . فهو تارة على النهر . وطوراً على الوسط واحياناً ادنى .

وزوجان من الجوارب اتفقا على تغليف رجليه واختلفا على اللون والشكل ولم يساعد الانسجام والتوءم بينهما الا نادراً .

منير الرأس على وعي وفصيح . رحب الصدر على مودة ومحبة . رضي الطباع على الفة وشم . يعرف نفسه على غير ادعاء وغرور ويحترمها على غير تجبر وصلف .

ان حسبه التليد الذي به اعتز وفتخر اضاف نسباً جديداً من العلم والادب به زها وتغنى .

« ان لم اكن بالغنى رأساً لعائلتي فسائني رأسها بالعلم والادب »

شديد التأثر . سريع الغضب . سريع الرضى ولعل هذه الصفات دليل على سلامة طوية وصفاء قلب .

انه شيء يغضبه وابسط الامور يفرحه . وان غضب فبركان يقذف الحمم النواهب ؛ وان رضي فطفل مدلل : على فهم . ساذج على عمق .

طيب القلب : سليم الطوية : سمح رحوم شفوق . الحقد ما تعرف اليه قلبه . والضغينة والموجدة ما عرف صدره فما شكلاً ولونا .

وديع متواضع متواضع ، يعتبر جميع الناس ويحترمهم ويجلهم : ونظرته اليهم نظرته الى من يفوقونه علماً وادباً وثقافةً ومواهب : ونظرته الى نفسه نظرته الى من هو دون الناس علماً ومقدرةً وذكاء .

ميسال كسول ، لا يعير زيه وثيابه وشكله اي اهمية : فقلما كان يظهر للناس بشكل رائق وزي لائق .

قروي عتيق وجبلي اصيل : ما صقل ذوقه العلم ولا شذبت اميالـه الثقافة : فظل هو اياه من اولئك الجبليين الميامين : طبيعياً في تصرفاته : لا يعرف التكلف والرياء والخداع . ما فكر يوماً ان يعلو سواه او يتعالى على من هم دونه .

عايش اهالي قريته فكنت تحسبه احد الفلاحين المساكين الذين قضوا عمرهم وراء المحول والرفش . وعندما يضمه مجلس ادب تخاله النابغة الذبياني في سوق عكاظ .

اذا وقع نظرك عليه وكنت تجهله احترته وازدريته قبل ان يتفوه بكلمة : اما اذا بدأ يتحدث فتدرك ان الذي امامك هو من طينة غير طينة الرجال العاديين.

حتى اليد بينه وبين المائدة عداء وجفاء.

عف اللسان : عفيف الجنان. ما عرف لسانه القدح والهجاء ؛ وقلبه الا المدح والثناء.

يحب بطنه ولمعدته عنده احترام خاص ومنزلة مرموقة. اكلة شهية تسبيه مذاهبه ومشاكله. وعلى الرغم من كونه يستمرئ كل شيء كانت المآكل المفضلة لديه ما دخلها السكر وحلا طعمها في الحلق. وبين الفواكه كان العنب ، العنب المسك ، خير ما يحب ويفضل.

ما تمنى الانتصار والتغلب على احد الا في لعب الورق ؛ حيث كان يتحسس له حساساً يفقده احياناً اتزانه. فان انتصر تفتحت اسارير وجهه وتبهور وترجل. وان غلب ازبد وارعد وزمجر وكان دائماً لشريكه قوارص الكلام البريء.

ان وقع بصرك على كاهن يدخن اللفائف الواحدة تلو الاخرى وبشكل لا واع ؛ وينفث بقوة دخانها في انحاء حتى ولو لم تكن مشعلة ؛ ويرميها ولم يحترق بعد نصفها ، ليشعل اختها فوراً ؛

وان رأيت في مجلس كاهنا لا ينفض رماد لفافته الا على صدره وثيابه ؛

واذا وقع نظرك على رجل يدلف في سيره دلف التقدع متنقلاً على الطريق من اليمين الى اليسار ؛ ومن اليسار الى اليمين ، وعيناه مثبتتان في ما لا تعلم باي شيء على الارض ؛ واذا حييته ولم يكترث لتحيتك او لم يسمعها ؛ لانه ضائع في مهامه الخيال ؛ شارد في واحات التفكير ؛ فقل : انه الخوري حنا طنوس.

عهد الخصب والانتاج

شرع الخوري حنا يعلم ويؤلف فكان له تأثير كبير في الادب العربي عامة والفضل الاكبر على المسرحية العربية خاصة.

قبل الخوري حنا كان تدريس الادب يقوم على حفظ القصائد الشعرية ، وتفسير مفرداتها ، وشرح معاني ابياتها ، مع ابراز محاسنها البيانية ، وروائعها المعنوية ؛ دون اللجوء الى التحاليل والنقد ، وربط الاثر الادبي

من منظوم ومنثور جيدة مؤلفه . ودون درس الاسباب التي دفعته لتأليفه والعوامل التي اثرت فيه من نفسانية وبيئية واجتماعية وانسانية وسياسية . فكان الاثر الادبي يدرس كوحدة مستقلة عن مؤلفه ، لا كجزء من كل . لا يمكن ان يفهم تمام الفهم الا اذا وضع في اطاره الزمني وضمن نطاقه الادبي . فكم ان ثمرة . وهي نتاج الشجرة . لا يمكن تقييمها الا اذا درست الشجرة . والتربة التي تعيش فيه وسائر العوامل الطبيعية التي تؤثر فيها . كذلك النتاج الادبي . لا يمكن فهمه حق الفهم وتقييمه . الا اذا وضع في اطاريه الادبي والزمني المعينين اوجاده . والا اذا اعتبر جزءًا من كل . وربط ربطاً وثيقاً بمؤلفه وعقدت المقارنة بينه وبين سائر النتاج الادبي .

هذا ما ادركه الخوري حنا . وقد اثر بهذا تدريس الادب العربية بالطريقة العلمية العصرية عام ١٩٠٥ اثر حادث اسرده في ما يلي :

من اهنئ الاستاذ ام التلاميذ ؟

بينما كان الخوري حنا يشرح لتلاميذه في جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين احدى المعلقات ، دنا مدير الدروس العربية من الباب ، وظل واقفاً منصتاً الى شرح المعلم ، حتى قرع الجرس فدخل وقال : لا ادري من اهنئ ؟ اهنئ الاستاذ على شرحه او التلاميذ على اصغائهم ؟ المثل اللاتيني يقول : الالفاظ تطير والمدون المكتوب يبقى . فارجو من حضرة الاستاذ ان يستكتب تلاميذه ما يقوله . وانا واضع جائزة لتاريخ الآداب العربية .

وهكذا كان . فوضع الخوري حنا مؤلفات اربعة في تاريخ الادب العربي متناولاً العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، والعصر العباسي وعصر الانحطاط ، فكان بذلك السباقة في تدريس الآداب العربية على الطرق العلمية الصحيحة ، ووضع الآثار الادبية من شعرية ونثرية على محك النقد ، والتشريح ، والتحليل ، والمشابهة ، والمقارنة ، فالمفاضلة .

ولعل في مقارنته بين الاخطل والفرزدق وجرير ، وبين المتنبي وابي تمام والبحتري ، ما يعطي فكرة عن طريقته في التحليل ، واسلوبه في المقارنة والمفاضلة ، نثبت بعض مقاطع من المقارنتين في ما يلي :

---

١) « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي باشر جرجي زيدان نشر فصوله عام ١٨٩٤ ، يشتمل على ما حوته اللغة العربية من العلوم والآداب وتراجم العلماء والادباء والشعراء ، ولا يتضمن الا عناصر تاريخية لدراسة الآداب العربية .

مقابلة ومفاضلة بين المتنبي وابي تمام والبحتري

« ثلاثة شعراء ظهروا في العصر العباسي الاول والثاني والثالث . ابو تمام » « والبحتري والمتنبي . فزادوا دائرة اللغة العربية بمبانيهم واحكامهم ومدائحهم » « ومراثيهم واهاجيهم وفي كل غرض من اغراض الشعر . ولقد تضاربت » « فيهم الآراء ، وتباينت الاقوال . واختلف الادباء في تفضيل الواحد على » « الآخرين .

« فالمتنبي اسمى عقلاً . وامضى ذهناً ، وابعد نظراً . وابو تمام ارق » « شعراً والطف حساً . واصدق عاطفة . والبحتري اخصب خيالاً واحسن » « تخيلاً وادق تصويراً . فالمتنبي يسمو بالمعاني المدهشة على تنوعها وغزارتها ، » « وبابتكار الافكار على جدتها ومطابقتها للموضوع . فهو اول الثلاثة بل » « سابق شعراء العرب كلهم في هذا الميدان . وابو تمام في رقة العواطف » « السامية ووصف الصفات المستحبة الخلابة هو الاول ولا تكاد ترى له » « ثانياً . والبحتري في وصف بدائع المصنوعات البشرية ، والمشاهد الطبيعية ، » « وتصوير المنظورات الحسية ، يذهل ويدهش . وهو في هذا الباب الاول » « والسابق بين سائر الشعراء . فالمتنبي شاعر العظمة والعظائم . وممدوحه اعظم » « من الناس وفوق الناس ويكاد لا يكون من البشر . اما ابو تمام فممدوحه » « اكرم الخلق وابسلهم واحكمهم . فهو شاعر العواطف الرقيقة والصفات » « المستحبة . اما البحتري فممدوحه متفوق باخلاقه وعوامل نفسه واعماله . » « ويكاد الثلاثة يتساوون في باب المديح . والافضلية للمتنبي في تعظيم » « الممدوح والاسبقية لابي تمام في تحبيبه ، وللبحتري في تصوير اخلاقه » .

« اذا شبهنا الثلاثة باطيار ، فالمتنبي نسر يحلق في جو المعاني العالية » « والافكار السامية ويصعد الى فضاء رحب متسع ولا يلبث ان يغيب » « احياناً عن النظر غيبة غموض وابهام تواريه . ثم تنجلي الغيوم فيتراءى » « لك محلقاً في الفضاء باسطاً جناحيه . وابو تمام حمامة على ايكة تنوح » « تارة فتثير الاحزان والاشجان وتغني اخرى فتهيج عواطف الخلان والاقران . » « والبحتري هزار على اغصان الاشجار وعلى ابراج القصور الشماء وفوق » « البرك الصافية » .

« واذا شبهنا الشعراء الثلاثة بمصورين فالمتنبي مصور العظمة والعظائم . » « وابو تمام رسام الكرم والكرام والمكارم . والبحتري نحات الحسن والمحاسن » .

« واذا نظرنا الى الشعر نظرة اجمالية من سائر وجوهه وابوابه واغراضه »
« ومبانيه ومعانيه وصفات الانشاء . ووضعنا المحاسن في كفة الميزان والمساوئ »
« في الكفة الاخرى وجعلنا نصب اعيننا المثال الاعلى للجمال الشعري »
« والكمال الفني رأينا — اذا كان لا بد من مفاضلة — المتنبي راجح الكفة »
« ويليه ابو تمام ثم البحتري » .

=

وتصرف في تأليف الروايات التمثيلية فكان بما خلف من مسرحيات واحد الفن المسرحي في الشرق العربي . فمن الدرر المسرحية نذكر . رجل الغربة السوداء . الفرد الكبير . امير لبنان وكسرى . صبي الدهاليز . ملك الديماميس . العرش الخامس . الحلم الرائع والصحو الفاجع . الخارج . البطل المجهول . البطل الاخرس . الاعمى البصير . خميس الوطن . العسران . حرب داحس وغبراء . شرسيا . يوسف بك كرم . المهلهل . البطريرك حجولا . امير الارز . العقل البشائي والدهاء العثماني . عبد المنعم امير جبيل . داود وشاول . يهوديت . قسطنطين الملك . طوبيا البار . يوسف الحسن . ابشالوم . مار لويس . يوحنا فم الذهب . ليلى العفيفة . شهداء نجران . دانيال النبي . الدنانير الحمر . قايين وهابيل . جريمة وتكفير وغفران . الما احنوخ . وسيدة لبنان (بالاشتراك مع بدوي ابي نادر) .

وله في الفلسفة : اللاهوت الادبي . واللاهوت النظري . وحوادث ذمة اي فتاوى .

وفي الادب : تعريب قسم من الانياذة للشاعر اللاتيني « فيرجيل » . والابن الشاطر . ودون كيشوت للكاتب الاسباني « سرفنتس » .

كل هذا النتاج الادبي لم يدر على الخوري حنا . ما يمكنه من شروى نقير . وظل حتى آخر ايام حياته يفتش عمن يشتري ثمار نبوغه ومولدات خياله . واذكر في هذا الصدد اني عدته في ايامه الاخيرة اثر وقوعه عن سلم المطبعة الكاثوليكية ونقله الى مستشفى اوتيل ديو للمعالجة في اواخر شهر اذار ١٩٤٦ فجرى لي معه حديث ادبي طريف .

حديث الخوري حنا على فراش الموت

ما كدت ادق باب غرفته في المستشفى مستأذناً بالدخول حتى تنحنح وصاح ، ادخل .

. دخلت عليه فاذا هو يجهد عينيه — وقد كان شحيح البصر — ليتبين

ملامحي فيعرفني. ولما دنوت منه وعرفني بادرني فوراً ببيتي الشعر التاليين :

جزى الله المصاب كل خير ولو كانت تغصصني بريقي
وما شكري لها الا لاني عرفت بها عدوي من صديقي

وكان بيننا حديث طويل والحديث شجون. فسألته في ما سألته رأيه في ادباء العصر وشعرائه.

فاجاب : من انا حتى اقيم نفسي حكماً بين الادباء والشعراء نظير النابغة في سوق عكاظ ؟

— ان لرأيك وزنه يا ابت فمن افضل الادباء في نظرك ؟

— سؤال يصعب الرد عليه لان كل اديب يفضل سواه بمزية من المزايا. ومواهب الاديب خمس : حدة الذهن وقوة المخيلة والحافظة : والذوق . وحسن التعبير . فمن تجمعت فيه هذه المواهب بدرجة متوازنة اصبح اديباً . ولكن من المستحيل او النادر ان تجتمع كلها بدرجة عليا متوازنة . فقد يسود العقل : وتضعف بقية المواهب فيتكون من ذلك الرياضي والمخترع والفيلسوف نظير باكون وديكارت وارسطو ...

— والشعراء في لبنان ؟

— المفاضلة صعبة لان كل واحد من شعرائنا يتميز بفرع من الفروع ومزية من المزايا . وشخصياً اتذوق كثيراً شعر الدكتور نقولا فياض : واعجب بلغته الصافية واسلوبه البليغ . وانك ترى في قصيدته المعاني متلاحمة من اول بيت الى آخر بيت، كان البيت الثاني ولد الاول والفكرة ولدة الفكرة .

— وفي الغزل ؟

— بشارة الخوري اغزل الشعراء وعندي انه اجدر بلقب عمر بن ابي ربيعه منه بلقب الاخطل الصغير . وقد فاق عمر ، وبهاء الدين زهير ، وابن الفارض . ولا يفضله احد في هذا الباب بل يجاريه امير الشعر الزجلي رشيد يك تخله. الا اني آخذ على الاخطل الصغير تماديه في غزله حتى في رثاء احمد شوقي.

— وما رأيك في شبلي الملاط ؟

— هو المجلي في الشعر القصصي ولكن يؤخذ عليه عدم الاتزان في قصائده. فانك ترى بين الابيات الفصيحة بعض ابيات ذوقها فصاحة : وذلك مبيه سرعة الخاطر ، وغزارة المادة ، وسهولة النظم .

— ومن اية طبقة هو امين نخلة ؟

— خفة روحه : وعذوبة الفاظه : واختياره اوقع الكلمات في الاذن . تؤهله لان يتبوأ المنصة العالية .

— ما هي احسن رواياتك التمثيلية ؟

ارتسمت على اساريرِ وجهه ابتسامة وقال : سئلت اعرابية عن افضل بنيها في عينيها فقالت : اهو الحسن ام الحسين ام احمد ام علي . والله لا ادري من . فكلهم جميل في عيني .

وتوقف هنيهة عن الكلام ثم قال : اما انا فعلى نقيض تلك الاعرابية : لا ارى شيئاً جميلاً في تآليفي الادبية . ولكن اذا كان لا بد من مفاضلة فاني ارى « شهداء نجران » و« العمرين » و« النعمان » و « البطل المجهول » افضلها . اما الرواية التي تعجب الشعب فهي رواية « يوسف بك كرم ».

— كيف كنت تؤلف رواياتك ؟

— كنت اؤلف في الليل : في الظلمة . دون ان اكتبها : ثم املليها في النهار على تلاميذي فيظن الناس اني ارتجل الروايات .

— وماذا انتفعت من مؤلفاتك ؟

— ابتسم واجاب : قال احد الظرفاء لرجل اسمه نوح : كان نوتياً ومات مصلوباً على احد صواري سفينته « لم تستفد يا نوح من سفينتك الا الصلب ... » وانا (اضاف الخوري حنا) لم استفد من تآليفي سوى التعشيق فلو كنت عياً على حد قول جبران خليل جبران لكان ذلك افضل من بلاغتي وفصاحتي بين اناس لا يسمعون .

— اين تآليفك ؟

— ترجمت قسماً من الانياذة وفقد ... والله اعلم اين مقره . اما عظاتي الثلاثمائة فقد استعارها مني الاب ميشال اليسوعي ثم قال لي انها فقدت منه.

ولي « تاريخ الآداب العربية » لا اعرف كيف انشقت الارض وابتلعته. ورواياتي التمثيلية مبعثرة هناك وهنالك . يوجد قسم منها في اخوية «مار لويس غونزاغا» وقسم آخر عندي وقسم كبير عند بعض تلاميذي الذين نسخوها وبقيت المخطوطات الاصلية لديهم .

— هل تميل بعد الى التأليف ؟

ما كاد هذا الحديث تنشره مجلة الجمهور في عددها ٤١٨ تاريخ ١٥/٤/١٩٤٦ ؛ حتى تناقلته سائر المجلات والصحف . وتهافت الى القصر الجمهوري غير واحد من الوزراء والنواب يسألون الرئيس بشاره الخوري عن وعد والده له : واتصل غير واحد بالخوري حنا يسألونه عن هذا الوعد . فكان رحمه الله يعتصم بالصمت ويجيب باسماً : اسألوا فخامة الرئيس .

مات الخوري حنا طنوس ومات معه ذلك الوعد السر .

=

اذا استرسلت في التحدث عنه كمعلم وفي سرد القصص التي يرويها تلاميذه لطال بي المجال . لذلك سأقتصر على بعض منها .

يمشي تحت الامطار والشمسية تحت ابطه

كانت الامطار تتساقط بغزارة والخوري حنا سائر على الطريق والمياه قد بللت ثيابه . فانتهره احد الذين شاهدوه على هذه الحال ، قائلاً : ما الذي يوجب عليك السير تحت هذه الامطار ؟

— كي لا اتأخر عن الصف .

— اي صف ؟ هذا نهار الخميس وبعد الظهر تعطيل ؟

— اف ، سيا عن بالي ذلك ففي اعتقادي اننا في نهار الجمعة .

— طيب ولماذا لا تفتح الشمسية فتقيك الامطار ؟

— لعن الله الشيطان فقد نسيتها في غرفتي يوم انا باشد الحاجة اليها .

واطلق الحاضرون ضحكات مدوية ، واستغرقوا في الضحك ، حتى كادوا يستلقون على ظهورهم . ان الشمسية التي قال الخوري حنا انه نسيها في غرفته ، فاضطر الى السير تحت الامطار انما كانت معه ، تحت ابطه وهو غير دار بها .

يغفو وعيناه مفتوحتان

ومن غرائب ما يروي عنه تلاميذه انه كان يغفو وعيناه مفتوحتان . وقد قص الاب الياس شاهين مدير الدروس العربية في جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت النادرة التالية :

كنت — يروي الاب شاهين — في مدرسة مار يوحنا مارون في

« كفرحي » من قضاء البترون ، تلميذاً في الصف الذي يعلمه الخوري حنا طنوس . الا ان معلمنا ما كان يحضر الى الصف الا متأخراً ، مدعياً انه لا يسمع قرع الجرس الذي ينبه الى بدء الدروس . فكان التلاميذ اثناء غياب المعلم : يشيطنون : ويضجون : ويلعبون : مما لفت انتباه رئيس المدرسة وعاتب معلمنا على تأخره : وعهد الي امر تنبيهه ساعة يدق الجرس تلافياً لكل تأخر . فكنت ساعة يدق الجرس اصعد الى غرفة الخوري حنا واقول له : لقد دق الجرس يا معلمنا . وبهذه الطريقة اصبح الخوري حنا لا يتأخر بل يحضر الى الصف عند ابتدائه .

وقد حدث لي ان صعدت احد الايام الى غرفة الخوري حنا ورأيته مستلقياً على سريره . فحييته وقلت له : « لقد دق الجرس يا معلمي » . فالتفت الي وهز رأسه دلالة على انه سمعني .

نزلت الى الصف : وانتظرت مع رفاقي خمس دقائق ثم عشر : والخوري حنا لم يحضر . ومرت ربع ساعة ومعلمنا غائب . فقامت قيامة التلاميذ وشرعنا نتراشق بقطع الطبشور ونقفز على الطاولات ونضج ونصيح حتى بلغت ضجتنا مسامع الاب الرئيس . فهرول الى الصف . ولما لم يجد فيه معلمنا سألني عما اذا كنت نبهته كالعادة الى ان الجرس قد دق ، فاجبته بالايجاب . فاوفدني اليه لاستدعائه الى الصف ، ففعلت . ولما سأله الاب الرئيس معاتباً عن سبب تأخره : اجاب انه لم يسمع دق الجرس واني انا لم انبهه كالعادة المألوفة . فقلت له اني صعدت الى غرفته ونبهته . فاجاب بغضب : كلا انه لم يرني ولم يسمعني لانه كان نائماً . فقلت له : انك لم تكن غافياً يا معلمي فعيناك كانتا مفتوحتين وقد اشرت برأسك برهاناً على انك رأيتني وسمعتني .

فاجاب وقد بلغ به الغضب اشده : ألا تعرف اني اغفو وعيناي مفتوحتان ؟

فابتسم الاب الرئيس لهذه النكتة وضحك جميع التلاميذ . فهدأ الجو وحسنا خاطر الخوري حنا ، وقال : طيب طيب خذوا فرضاً لهذا المساء . اعدوا اقلامكم ودفاتركم .

وشرع يزرع الغرفة خطىً ذهاباً واياباً ، واملى علينا شعراً تعريب قصيدة « فكتور هيجو » واترلو .

ويعلق الاب شاهين على هذه الحادثة فيقول : عندما كبرت نسيت

ما كنت اعرف من القصص والنوادر المدرسية الشيء الكثير . انما بقيت حية في ذاكرتي قصة الخوري حنا الذي يغفر وعيناه مفتوحتان . ما كنت اشك في صدقه ولا في كونه لم يرني ويسمعني على الرغم من عينيه المفتوحتين واشارة رأسه . الا انني ما كنت اعرف كيف اعلل واحلل وافسر وضعه في ذلك الحين . ومع تقدم السن واستكمالي دروسي واتساع اطلاعي على الشؤون النفسانية انحلت العقدة وفهمت ان الخوري حنا كان ساعة كلسته غائباً عن المرئيات والحسيات، منهمكاً في تعريب قصيدة «واترلو» شعراً . فعيناه مفتوحتان لكنه لا يرى بهما او لا يدرك الصورة التي ترتسم فيهما . فكانت صورتي فيه ، لكنها لم تكن له لانه كان في حالة لاوعي .

وللخوري يوحنا طنوس ـ على ذمة الاب الياس شاهين ، تعريب عدة قصائد شعراً . امثال :

— المصلوب للشاعر لامارتين .

— الحيوانات المصابة بالطاعون للشاعر لافونتين .

— الغراب والثعلب للشاعر لافونتين .

— اوشست .

— مجد الرومان واضمحلالهم .

من ذكريات الاستاذ يوسف السودا

سئل احد تلاميذه في معهد القديس يوسف للآباء اليسوعيين الاستاذ يوسف السودا عن ذكرياته عن الخوري حنا فقال :

كان الخوري حنا من افضل الكهنة تقى وسيرة ، ومن اطيبهم سريرة واحلاهم معشرا . وكان بين الشعراء اسهلهم نظماً واغزرهم مادة واسرعهم خاطرا . اذكر فيما اذكر انه كان في مسرحياته ينتقي من يمثل ادوارها من الطلاب ويدخل في الادوار قصائد تتلاءم ومزاج الممثل وطباعه واخلاقه[1] . وحدث مرة انه كان قد عهد الي بتمثيل دور عبد العزّى[2] في مسرحية

---

١) كما كان يفعل المؤلف المسرحي الشهير موليار الذي كان يدخل النعال في الادوار التي يمثلها هو شخصياً .

٢) عبد العزّى في مسرحية شهداء نجران كان سابقاً وزيراً للحرث ملك نجران الذي عزله من منصبه لاتهامه ايله بالخيانة . فراح عندئذ يكيد للملك : وتمثل ابنه عبدالله بخنجر لمنيه عبد شمس ليقع الفتنة بين الملك وابنه . ثم لجأ الى ذي نواس ملك حمير يستعديه على ملك نجران النصراني .

« شهداء نجران » فترددت في قبول ذلك الدور لخلوه من قصيدة . ولما اطلعته على ذلك استغرق في الضحك وقال لي : « ما دام هذا هو سبب عدم رغبتك في تمثيل هذا الدور ، اخل بسيطاً . اكتب هذه القصيدة » .

واملى علي قصيدة ادخل اسمي فيها اذكر منها ما يلي :

اني استعرت بنار الحقد واحتبكت	في الصدر حيات سم كلها سودا
ويل العداة وويل الكل من غضبي	فلست عن كيد خصمي اليوم مردودا
لا يطفئ النار في صدري متى اشتعلت	الا اللهيب على الاعداء موقودا
وليس يروي غليلي من تشفي حنقي	غير الدماء تغطي السهل والبيدا
وليس يغلبني في كيده احد	انس وجن وما استثنيت صنديدا
ان كان يعبد غيري بعض آلهة	فلست اعرف غير البغض معبودا
يا حادث السوء كن مني على وجل	جردت سيف انتقامي اليوم تجريد
يا آل نجران قصدي اليوم اهلككم	قتلاً وذبحاً وتشتيتاً وتنكيدا
هذا وعيدي فلا رب يخلصكم	اني مبيدكم يا قوم تبديدا

يراهن ويربح ثلاثة ارطال من المشمش اللوزي

ومن ذكريات احد تلاميذه الشاعر انور امام الذي درس عليه في بانياس فكان : على حد تعبيره : التصق طلابه به : واكثرهم افادة منه : ما انقله حرفياً :

« ماذا اقول في الخوري حنا طنوس ؟

ارئيساً روحياً كان ام واعظاً اجتماعياً يتقاطر لسماع عظاته وارشاداته المسلمون قبل المسيحيين ، ام اديباً فذاً دان له الحرف وطاوعته الكلمة : يذكرنا بيانه بفحول الادب العباسي ؟ اعالماً كان من علماء اللغة ام شاعراً ملهماً ، يعيد بكر المعاني ليكسوها درر الالفاظ : ويحلوها عرائس لا ابهى ولا اجمل ؛ ام استاذاً كبيراً عشق الادب العربي فاولاه عنايته تدريساً وتأليفاً ؛ ام عالماً رياضياً يحل مسائل الجبر العويصة : كما تحل مسائل الحساب الذهني ، ام رائداً للمسرح العربي القومي وضع من المسرحيات المستقاة من التاريخ العربي ، ما بلغ حد الابداع ، ام خطيباً دانت له اعواد المنابر يتلاعب بأفئدة السامعين وتتدفق الفصاحة والبلاغة على لسانه تدفق السيل ، ام رائداً من رواد القومية العربية ، غناها يشعره ، وابرزها في مسرحياته ، وبثها في طلابه ، ليتموا رسالته فكانوا من بعده مشعل كفاح ونضال ؟

ما كنت اعرف من القصص والنوادر المدرسية الشيء الكثير . انما بقيت حية في ذاكرتي قصة الخوري حنا الذي يغمز وعيناه مفتوحتان . ما كنت اشك في صدقه ولا في كونه لم يرني ويسمعني على الرغم من عينيه المفتوحتين واشارة رأسه . الا انني ما كنت اعرف كيف اعلل واحلل وافسر وضعه في ذلك الحين . ومع تقدم السن واستكمالي دروسي واتساع اطلاعي على الشؤون النفسانية انحلت العقدة وفهمت ان الخوري حنا كان ساعة كلمته غائباً عن المرئيات والحسيات منهمكاً في تعريب قصيدة «واترلو» شعراً . فعيناه مفتوحتان لكنه لا يرى بهما او لا يدرك الصورة التي ترتسم فيهما . فكانت صورتي فيه ، لكنها لم تكن له لانه كان في حالة لاوعي .

وللخوري يوحنا طنوس . على ذمة الاب الياس شاهين : تعريب عدة قصائد شعراً . امثال :

— المصلوب للشاعر لامارتين .

— الحيوانات المصابة بالطاعون للشاعر لافونتين .

— الغراب والثعلب للشاعر لافونتين .

— اوغست .

— مجد الرومان وانحطاطهم .

من ذكريات الاستاذ يوسف السودا

سئل احد تلاميذه في معهد القديس يوسف للآباء اليسوعيين الاستاذ يوسف السودا عن ذكرياته عن الخوري حنا فقال :

كان الخوري حنا من افضل الكهنة تقى وسيرة ، ومن اطيبهم سريرة واحلاهم معشرا . وكان بين الشعراء اسهلهم نظماً واغزرهم مادة واسرعهم خاطرا . اذكر فيما اذكر انه كان في مسرحياته ينتقي من يمثل ادوارها من الطلاب ويدخل في الادوار قصائد تتلاءم ومزاج الممثل وطباعه واخلاقه[1] . وحدث مرة انه كان قد عهد الي بتمثيل دور عبد العزّى[2] في مسرحية

---

١) كما كان يفعل المؤلف المسرحي الشهير موليار الذي كان يدخل النمال في الادوار التي يمثلها هو شخصياً .

٢) عبد العزّى في مسرحية شهداء نجران كان سابقاً وزيراً لحرث ملك نجران الذي عزله من منصبه لاتهامه اياه بالخيانة . فراح عندئذ يكيد للملك . وقتل ابنه صداقه يختبز امنيه عبد شمس ليبقي الفتنة بين الملك وابنه . ثم لجأ الى ذي نواس ملك حمير يستعديه على ملك نجران النصراني .

« شهداء نجران » فترددت في قبول ذلك الدور لخلوه من قصيدة . ولما اطلعته على ذلك استغرق في الضحك وقال : « ما دام هذا هو سبب عدم رغبتك في تمثيل هذا الدور : الحل بسيط . اكتب هذه القصيدة » .

واملى علي قصيدة ادخل اسمي فيها اذكر منها ما يلي :

اني استعرت بنار الحقد واحتبكت ... في الصدر حيات سم كلها سودا
ويل العداة وويل الكل من غضبي ... فلست عن كيد خصمي اليوم مردودا
لا يطفئ النار في صدري متى اندلعت ... الا اللهيب على الاعداء موقودا
وليس يروي غليلي من تشفي حنقي ... غير الدماء تغطي السهل والبيدا
وليس يغلبني في كيده احد ... انس وجن وما استثنيت صنديدا
ان كان يعبد غيري بعض آلهة ... فلست اعرف غير البغض معبودا
يا حارث النوء كن مني على وجل ... جردت سيف انتقامي اليوم تجريد
يا آل نجران قصدي اليوم اعدمكم ... قتلاً وذبحاً وتشنيعاً وتنكيدا
هذا وعيدي فلا رب يخلصكم ... اني مبيدكم يا قوم تبديدا

يراهن ويربح ثلاثة ارطال من الشمش اللوزي

ومن ذكريات احد تلاميذه الشاعر انور امام الذي درس عليه في بانياس فكان : على حد تعبيره : انصق طلابه به : واكثرهم افادة منه : ما انقله حرفياً :

« ماذا اقول في الخوري حنا طنوس ؟

ارثيه روحياً كان ام واعظاً اجتماعياً يتقاطر لسماع عظاته وارشاداته المسلمون قبل المسيحيين ، ام اديباً فذاً دان له الحرف وطاوعته الكلمة : يذكرنا بيانه بفحول الادب العباسي ؟ اعالماً كان من علماء اللغة ام شاعراً مليحاً ، يصيد بكر المعاني ليكسوها درر الالفاظ : ويحلوها عرائس لا ابهى ولا اجمل : ام استاذاً كبيراً عشق الادب العربي فاولاه عنايته تدريساً وتأليفاً : ام عالماً رياضياً يحل مسائل الجبر العويصة : كما تحل مسائل الحساب الذهني ، ام رائداً للمسرح العربي القومي وضع من المسرحيات المستقاة من التاريخ العربي ، ما بلغ حد الابداع ، ام خطيباً دانت له اعواد المنابر يتلاعب بأفئدة السامعين وتتدفق الفصاحة والبلاغة على لسانه تدفق السيل ، ام رائداً من رواد القومية العربية ، غناها بشعره ، وابرزها في مسرحياته ، وبثها في طلابه ، ليتموا رسالته فكانوا من بعده مشعل كفاح ونضال ؟

انه كان كل هؤلاء جميعاً.

كان يدرسنا الادب العربي من العصر الجاهلي الى عصر الاسلام و العصر الاموي الى العصر العباسي فالى عصر النهضة. يملي علينا الدروس على شكل محاضرات ولم نرد مرة استعان بكتاب. يملي ونكتب ودخان النفائس يتصاعد حلقات حلقات ونظراته تشرد في البعيد البعيد. وبين حين وآخر تومض في عينيه نخة خاطفة تدلنا على انه تصيد فكرة جديدة. وكانت طريقته تعتمد على البحث والتحليل لنفسية الشاعر وما تأثر به؛ مظهراً محسناته وعيوبه وذلك ببحث دقيق ممتع تقصر عنه حتى كتب الادب الاجنبية. وكثيراً ما كنا نقارن بين ما يمليه علينا وبين دروس الادب الفرنسي «ديجراك» فنجد ان دروس استاذنا اكمل واجمل وامتن واعمق.

حين تنظر اليه تشعر بالطمأنينة والثقة تملآن نفسك وروحك. كان محبة خالصة وحناناً جماً؛ طلابه ابناؤه.

واثناء فترة الصيام عند المسيحيين كان يعظ في الكنيسة فكانت دائما تغص بالمستمعين المسلمين لان وعظه كان شاملاً انسانياً رائده المحبة والخير لبني البشر اجمع.

ومما اذكره عنه هذه النادرة التي تدل على ثقة الخوري حتا بطلابه.

دعاني اليه في نهاية عام ١٩٣٢ وقال لي امام جمع من الاساتذة: يا انور لقد تراهنت مع الاستاذ وديع حداد (استاذنا في اللغة الانكليزية) على انك تحفظ غيباً ستين بيتاً من الشعر الجاهلي في ساعة واحدة. وله امر انتقاء القصيدة. فلا تجعلني في الرهان خاسراً وتخيب املي. اجبته: على الله الاتكال. فاختار لي الاستاذ حداد: لامية العرب للشنفرى وما كادت تمر الساعة حتى عدت اليه وقد حفظت القصيدة بكاملها، فربح استاذي الرهان وكان ثلاثة ارطال من المشمش اللوزي نلت منها نصيبي كباقي الاساتذة.

لم اكن ادري عهد ذاك انه، رحمه الله، وقد لمس لدي ذاكرة قوية، يريد أن ينميها ويبث فيّ الثقة بالنفس. وقد جنيت من ذلك اطيب الثمار حتى اني كنت الشاعر الوحيد الذي قصيدته غيباً في مهرجان الشعر الرابع وذكرى ابي فراس الحمداني في حلب وقد اربت القصيدة على السبعين بيتاً».

مواهبه

من يصدق ان هذا الشخص المهمل الذري المظهر والشكل كان غني العقل . غني القلب . غني الاخلاق . فقلما توافرت في شخص من الثروات العقلية والروحية والاخلاقية : ما توافر في شخصية الخوري حنا طنوس . كان كريم الخلق . ندي الكف ، مترفعاً عن المادة ، محتقراً للخيرات الترابية . سمح الاخلاق . متواضعاً . كان حكيماً اذا استشرته ، وشاباً اذا هويته ، وفتىً اذا داعبته ، وطفلاً اذا لاعبته ، وحجة اذا ناقشته .

كاهن ورع تقي : ترك الدنيا وتخلى عن خيراتها الترابية وزهد في المغريات الزمنية . فرفض المال والشهرة والمجد وكل ما يتكالب في سبيل الحصول عليه انسان . واستظل لواء الكهنوت جندياً في خدمة جوهر الدين ومثله واهدافه السامية . عاش فقيراً ومات فقيراً لا يملك حتى ثمار قلمه ونتاج عقله .

الخوري حنا يلقب نفسه

سألته مرة : لماذا انت على هذه الحال يا ابانا ؟

اجاب بالفرنسية : طرفا الحبل يلتقيان (Les deux extrêmes se touchent) ثم فكر قليلاً واضاف : اسمي حنا ولكل اسم حنا لقب .

فهناك يوحنا المعمدان ، ويوحنا الانجيلي ، ويوحنا فم الذهب ، ويوحنا الدمشقي ، ويوحنا الحبيب ، ويوحنا الصليب (Jean de la Croix) ويوحنا الشجاع (Jean sans peur) ويوحنا دون ارض (Jean sans terre) وفي جوارنا يوحنا الكذاب ، ويوحنا البكاء .

وصمت . فقلت له : وبعد فأي لقب يلازمك انت . ضحك ضحكة لا اعذب ولا احلى ، واجاب بالفرنسية متعمداً التورية في اللفظة : Jean sans livre اي حنا لا كتاب ولا مال . ثم قال مرتجلاً :

لكل حنا بهذا الكون شهرته وحنا طنوس لا طرس ولا فلس

وفعلاً لم يكن لديه من كل تآليفه واثاره كتاب واحد او مخطوطة واحدة ، كما انه كان لا يملك فلساً . وعندما كان يصله شيء من المال كان يبذره ويوزعه دون حساب . كان يؤلف ويرمي وتآليفه جمعها سواه وهنالك قسم كبير منها لا تعرف له مقراً .

اعتزل الدنيا : والعزلة — كما قال امين الريحاني — داء او دواء او غذاء . فكانت للخوري حنا الغذاء كل الغذاء . كانت غذاءه الروحي استمد منها تأملاته الروحية . كانت غذاءه التفكري ينبل منها تفكيره . كانت غذاءه الخيالي والادبي استرحاها في اشعاره وروائعه الادبية .

وكان واسع الآفاق : عميق الثقافة : شامل الاطلاع . يجمع في شخصيته الى خصب الخيال عقلاً رياضياً مدهشاً حتى انه كان : وهو في عقده الثامن : يناظر طلاب الهندسة في حل عمليات حسابية و « حزازير » يقتضي حلها معرفة تامة بالعلوم الهندسية والجبرية والمام بالعلوم الفيزيائية والكيمائية .

ورثت البيضين : الشاعرية من والدي والعقل الرياضي من خالي

وكنا نستغرب هذه المواهب المتناقضة المتآلفة فيه : مواهب الرياضيات والحسابات . ومواهب الشعر والخيال . فسألناه مرة عن سر اجتماعها فيه فقال : والدي كان شاعراً فورثت عنه الخيال والشاعرية ؛ وخالي « فنيانوس » كان ذا عقل حسابي مدهش مع انه كان اميّاً . فورثت عنه العقل الرياضي .

ومما يروى عن خاله فنيانوس انه حصل مرة عهد ذلك قحل في المواسم . فكان ابناء منطقة البترون يقصدون في عشيت من منطقة جبيل شخصاً ثرياً عرف « بطوبيا عشيت » يمتارون من محاصيل اراضيه واملاكه من الحنطة ومختلف الحبوب ما يقتاتون به .

وكان طوبيا المذكور قد وصلت اليه عن فنيانوس الاخبار المدهشة . فلما قصده ليبتاع من عنده ما يحتاج اليه من مواد غذائية ؛ احب ان يمتحن ذكاءه ويتثبت شخصياً من موهبته الرياضية ومقدرته الحسابية . فقال له : انا مستعد لان ابي طلبك اذا استطعت ان تقوم بالعمليات الحسابية التي سأطرحها عليك . وان اخطأت في حساباتك رددتك خائباً دون ان ابيعك شيئاً ولو دفعت اضعاف اضعاف ثمن ما تود شراءه .

واستقدم طوبيا حاسبه وشرع يبسط على فنيانوس العملية الحسابية : والكاتب يدون ذلك . فقال له :

اذا اشتريت خمسة قناطير قمح لقاء كذا بشالك الرطل ، واربعة قناطير ونصف شعير لقاء كذا لخاسة الاقة ، وقنطارين وربع حمص لقاء كذا... الاقة ، وربع (وتعددت الاصناف وتعددت الاسعار) فكم يكون ثمن كل ذلك ؟

وبعد فترة قليلة من الوقت اجابه فنيانوس : وقد كان امياً لا يحسن الكتابة ولا القراءة : يكون ثمن كل ذلك مبلغ كذا ...

وعندما انتهى الحاسب من عمليات الضرب والجمع اعطى النتيجة وكان الفارق بين جوابه وجواب فنيانوس بضعة بشالك . فقال طوبيا لفنيانوس . لن ابيعك شيئاً اذن . لانك اخطأت في الجواب . فاجابه فنيانوس : حاسبك اخطأ وجوابي هو الصحيح . وراجع الكاتب قيوده فثبت ان الحق الى جانب فنيانوس وان الجواب الذي اعطاه كان الجواب الصحيح. عندئذ تأكد لطوبيا صدق ما يروى عن فنيانوس وعن قوة موهبته الحسابية فوهبه مجاناً ضعف ما جاء يشتري من حنطة وحبوب .

قوة ذاكرته

وكان الخوري حنا يتمتع بحافظة غريبة : كما ذكرت سابقاً . حتى انه كان راوية لكل قصائده ومختلف رواياته يستعيدها ساعة يطلب منه ذلك . واذا ضاع الكثير من اثاره الشعرية ونتاجه الادبي فلانه كان لا يكتب شيئاً . وما بقي من اثاره الادبية فهو ما دونه سواه او ما استكتبه اياه اصدقاؤه . ويروى في هذا الصدد الاعاجيب والمدهشات اروي منها على سبيل المثال ، ما كنت فيه شاهد عيان وسمع .

النادرة الاولى

كنت واترابا لي ، عهد التلمذة والدراسة : نتمرن على تمثيل رواية البطل المجهول[1] . وبعد حفظنا ادوارنا واتقاننا اداءها ، ارتأينا ان ندعو الخوري حنا لابداء رأيه فينا قبل تمثيل الرواية امام الجمهور ، فلبى الدعوة .

وكنت انا امثل دور قسطنطين . وما كدت اصل في احدى القصائد التي يخاطب فيها قسطنطين والده مالك ابي الغيث ، الى البيتين التاليين :

ادري بان العدى في الليل زاحفة ... تريد تحتل ظلماً قمة الجبل
ادري بان الرقيب اليوم يغدرنا ... ادري بان ابي قد خان واخجلي

ما كدت الفظ « ابي قد خان » حتى انتفض الخوري حنا بقامته المديدة الفارعة وصاح غاضباً والشرر يتطاير من عينيه ، من اجاز لكم ان

١) مقتطف من هذه المسرحية في الصفحة ٧٥٥ وما يليها.

تحرفوا قصائدي وتصلحوها . انا لم اقل « ابي قد خان » بل « ابي الغدّار » . جئته بانّا نسخنا هذا النشيد من المنتخبات الادبية جامعها الاب بشير ابجا اليسوعي . وأريته النص المثبت في الكتاب المذكور . فقال . لا لا . انا لم اقل ذلك اروني المخطوطة الاصلية . هناك تحريف .

وذهبنا الى بيت الاب يوسف فارس وفتشنا في الصناديق عن المخطوطة الاصلية فعثرنا عليها مبللة ممزقة واتينا بها الخوري حنا فاذا البيت هو كما يلي :

ادري بان الزقيب اليوم يغدرنـــا ادري بان ابي الغدّار واخجلي

عندئذ ضرب الخوري حنا كفه على جبينه وقال : انا الخوري حنا لا انسى شيئاً لا انسى شيئاً . كل حرف من اثاري مطبوع هنا (واشار الى رأسه).

وشرع يلقي علينا درساً في الفرق بين «قد خان» وكلمة « غدّار » . فالدال المشددة التي تليها الف وراء تجعل الكلمة احسن اداء واقوى تأثيراً في الجماهير واوفى للمعنى المقصود ، فضلاً عن انها تفسح للممثل مجال القيام بالاشارة اللازمة التي تكمل معنى اللفظة .

اما عبارة « قد خان » السلسلة الناعمة ، فاين هي من كلمة « غدّار » التي ان لفظها الممثل على المسرح كما يجب ان تلفظ ، فاشبع الدال تشديداً ، واطال نفسه مع الالف ، تهدر بين الجماهير هديراً يصل الى اقصى القاعة .

النادرة الثانية

اما النادرة الثانية فقد حدثت في صيف عام ١٩٤٦ . كان حزب الكتائب اللبنانية قد اعد حفلة خطابية في قرية كفيفان من قضاء البترون ، دعا الى حضورها جميع اهالي المنطقة . وطبعت اعلانات ووزعت مناشير تحمل اسماء الخطباء واسم الخوري حنا طنوس في مقدمتهم . الا ان المرحوم والدي الذي كان يعرف الخوري حنا حق المعرفة كان ينبهني قائلاً : لا تنس الخوري حنا . لاحقه كي لا يسهو باله عن نظم قصيدته . فكنت اذهب اليه صباحاً طالباً منه ان يملي علي قصيدته لاثبت من انه قد اعدها فيقول : عد في المساء . واعود في المساء فيقول : لم انظمها بعد ، عد صباح غد باكراً . وتمضي الايام والخوري حنا لا ينفذ وعده .

واتى نهار السبت وشاعرنا يؤرجحني بين يوم وآخر وبين صباح ومساء ، ويوعد الخلة في النهار التالي اي نهار الاحد .

وصعد المرحوم والدي الى القرية وسألني عما فعل الخوري حنا فاجبته: لا شيء. فدعاني اليه داعياً اياه الى قضاء العشية معاً. ففعلت. ولبى الخوري حنا الدعوة حالاً وبدون مسرعاً وهو يجهل سبب الدعوة.

ولما فهم المرحوم والدي ان الخوري حنا لم ينظم قصيدته بعد. تأبط ذراعه وسار معه الى حدى غرف البيت. واجلسه على متعد بعد ان وضع امامه طبقين من العنب والتين وكبيت من الفطائر وقال له «لن تخرج من هنا الا بعد نظم القصيدة. هوذا ولدي معك فاستكتبه ما تجود به قريحتك».

واغلق الباب عليه. فقام الخوري حنا غاضباً حانقاً مزمجراً: يضرب على الباب بقبضتي يديه صارخاً: ما هذا العمل؟ ما هذه الحيلة؟ هل انا ولد ليزربني؟ ولما لست له ان لا مجال للخروج قال: لا حول ولا قوة الا بالله العظيم. والتفت الى طبقي العنب والتين فطفت على وجهه ابتسامة لا احلى ولا اعذب. فاشعل لفافة من التبغ وارتد الى الطبقين يلتهم العنب والتين وقام يتمشى وقال. اكتب. ولم تمض علينا ثلاثة ارباع الساعة حتى كان الخوري حنا قد املى علي ستين بيتاً من الشعر. واطل صباح اليوم التالي فقصدت شاعرنا اعرض عليه قصيدته بعد ان نسختها بخط جلي لعله يعيد النظر فيها فيصحح وينقح ويضبط بعض عباراتها وقوافيها اذا وجد ما يحتاج الى ذلك. فقطب ما بين حاجبيه وصاح بي غاضباً: عد الى بيتك. انت غبي جاهل. الا تعرف الخوري حنا. القصيدة اصبحت مطبوعة هنا (واشار الى راسه).

وابتدأ المهرجان الخطابي الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت قاعة مدرسة كفيفان وساحاتها غاصة بالجماهير. اما الخوري حنا فلم يحضر. اسرعت اليه في غرفا لارى ما اصابه ودهاه. فاذا هو يلعب بالورق مع ثلاثة من ابناء القرية. ولما سألته عن سبب عدم حضوره المهرجان ضرب كعادته بكفه على جبينه وقال: نسيت نسيت.

وانتقلنا الى كفيفان الى حيث اقيم المهرجان، فصعد شاعرنا توًا الى المنبر والقى قصيدته دون ان يحمل ورقة. فاذا معظمها يختلف عن القصيدة التي املاها علي عشية اليوم السابق وكان يحمل على كتفيه عبء الثمانين عاماً من العمر.

اما قصيدته التي يربي عدد ابياتها على الستين فاقتطف منها ما يلي:

لئن يفتخر في الناس يوماً مفاخر ... فكل فخار خص بابن الكتائب
فلله من جمعية عز شأنها ... فكانت لنا اعجوبة في العجائب
على صخرة المبدا القويم اساسها ... فليست تاني عند عصف النوائب
فخمسون الفاً عدهم كل واحد ... بالف اذا عدت رجال التحازب
تعالب تعوي كي تهد حصونها ... وهل يرهبن اسدا عواء الثعالب
نسور الفلا في الجو حلق سربها ... وأكوفها لحم القطا والارانب

=

يهيب بكم ارز الخلود . انا لكم ... لكم وحدكم من دون كل الاجانب
الا واحفظوا عهدي نظير جدودكم ... لتبعد عني كل وثبة واثب
الا واجمعوا حولي الشباب كتائباً ... وصونوا ترابي الحر من كل غاصب
الا واجعلوا لبنان رب قلوبكم ... ومرمى امانيكم ومبدا المذاهب
الا واجعلوا لبنان في الشرق جنة ... تتوق لمرآها ملوك الاعارب
لتخفق في الشرق القصي بنوده ... وتخنو لعلياه عروش المغارب

الى ان يقول وقد تناول العلم من احد الواقفين الى جنبه :

ايا ارزتي تفديك روحي من الاذى ... وتفديك بنيك من مقيم وغائب
وقاك اله العرش من كل نكبة ... ورقاك في الافلاك فوق الكواكب
الا حملوني راية الارز لحظة ... تعيدوا بها عهد الشباب لشائب
وان مت يوماً فادفنوني بظلها ... يهنئ رمسي كل آت وذاهب
لان رفاتي تستلذ نسيمها ... وابعث ان مر النسيم بجانبي

=

وداعاً أيها أهل المروءة والوفا ... الا فاذكروني يا شباب الكتائب

وعام ١٩٤٨ تذكرت الكتائب اللبنانية وصية الخوري حنا فاقامت له في غبما مهرجاناً حافلاً إحياء لذكراه . نهار الاحد الواقع في ١٨ نيسان ١٩٤٨ ووضع رئيس الكتائب بلاطة رخامية على قبره . وقد كان لبادرة الكتائب اطيب الاثر في نفوس جميع عارفي الخوري حنا وقادرين فضله . فعقدت الصحف في لبنان عامة والشمال خاصة عن هذا المهرجان المقالات الطوال . اورد في ما يلي مقتطفات منها .

كتبت صحيفة المستقبل الطرابلسية في عددها رقم ٤١٤ الصادر في ٢٢/٤/١٩٤٨ :

في غوما حيث يرقد فقيد الادب والفصاحة والبلاغة المغفور له الخوري حنا طنوس . في هذه القرية اللبنانية الجميلة احتفل اقليم الشمال في الكتائب اللبنانية بمهرجان لم يشهد الشمال اروع منه. فحضره رئيس الكتائب الاعلى الشيخ بيار الجميل واركان الحزب في بيروت والشمال ودخل موكبهم غوما بين اقواس النصر ومعالم الزين فاستقبلهم الاهالي بالهتاف والتصفيق والحرية والزغردة . وافتتحت الحفلة الخطابية بالنشيد اللبناني ثم تعاقب على المنبر فطاحل الادباء والشعراء . وفي النهاية وضعت الكتائب لوحة رخامية على ضريح الاب حنا طنوس وغادر الرئيس الاعلى واركان حزبه قرية غوما تشيعهم الجماهير بالهتافات الغالية .

ومما كتبته صحيفة الافكار الطرابلسية في عددها رقم ٤١٥ الصادر في ١٩٤٨/٤/٢٤ :

منذ عامين تقريباً توارى عن دنيا الادب والشعر ابو الادباء والشعراء في لبنان نعني المرحوم الخوري حنا طنوس اول من حمل شهادة دكتوراه في الفلسفة وصاحب عشرات المسرحيات الخالدة والمؤلفات التي لم تطبع بسبب قصر ذات يده ؛ توفاه الله عن عمر حافل بالجهاد في حقل الادب والعلم وتناساه اللبنانيون كما تناسوا الكثيرين مما طواهم الموت على عبقرية بائسة ... غير ان الكتائب اللبنانية التي قطعت على نفسها عهد القيام بالواجب تجاه الذين خدموا ويخدمون لبنان اينما وجدوا لم تنسَ واجب تكريم هذا العبقري المنسي فاحيت نهار الاحد المنصرم حفلة كبرى في مسقط رأسه « غوما » تكلم فيها عدد من الخطباء ، فمجدوا ذكرى الخوري حنا طنوس وغرسوا على قبره زهرة لن تذبل الى الابد .

— وقد كان المهرجان رائعاً جداً في جو « غوما » هذه البلدة التي انجبت فقيد المعاهد . والآداب . واللاهوت . والفلسفة والشعر : الخوري حنا طنوس .

الرقيب في ١٩٤٨/٤/٢٤

— الطيب الذكر والواسع الرحمة الاب حنا طنوس كان علماً من اعلام العربية واماماً من ائمة اللغة واحد المساهمين القلائل في وضع حجر الاساس لفن الرواية المسرحية في لغة الضاد ؛ حيث لا تزال مسرحياته الخالدة تمثل حتى اليوم في المعاهد الكبرى . لقد مرت فترة من الزمن على وفاته ؛ وشاءت الكتائب اللبنانية ذات المكرمات الطيبة في هذا المضمار ان تقيم للمرحوم

حفلة تذكارية في مسقط رأسه « غوما » فكان لها يوم امس حفلة موفقة كل التوفيق . وقفى فيها خطباء المهرجان حق الراحل الكريم من الاشادة بنبوغه واعماله .

الزمان في ١٩ / ٤ / ١٩٤٨

هاتان النادرتان التان جرني سردهما الى ايراد مقتطفات مما كتبته الصحف بشأن الخوري حنا طنوس . قد رويتهما رغبة في اعطاء فكرة خاطفة عن قوة ذاكرته التي تدعمها وتعززها سرعة خاطر مدهشة .

سرعة خاطره

فسرعة خاطره في قرض الشعر والارتجال حدث عنها ولا حرج . فهناك عدة مسرحيات املاها على تلاميذه ارتجالا . كان يدعو اليه عددا من الاشخاص فيوزع عليهم الادوار ثم يملي عليهم وهم يكتبون . وتجمع هذه الادوار المتفرقة فاذا هي مسرحيات .

وبصدد التحدث عن سرعة خاطره اذكر هذه النوادر .

محبتي لعليكم سرية

كان الخوري حنا ، كما روى الدكتور بطرس ديب ، يدرس عام ١٩٣٠ في بانياس (محافظة اللاذقية) في الكلية الوطنية لصاحبها الاستاذ يوسف الخوري الباني[1] . وفي نهاية العام الدراسي نظمت المدرسة حفلة وطلب من الخوري حنا قصيدة يلقيها في هذه المناسبة . الا ان شاعرنا كعادته تهامل وتكاسل ولم ينظم قصيدته الا اثناء قدومه الى الحفلة . فالقاها منطرقاً الى الاخوة القومية التي تجمع الاسلام والمسيحية على صعيد واحد ، مادحاً الطوائف كافة مثنياً على جميع رؤساء الاديان والمذاهب الا الطائفة العلوية التي سها باله عن ذكرها ومدح مشايخها .

اما القصيدة فقد ذكر الابتداء « انور امام »[2] يبتدئ من مطلعها لا يزالان عالقين في ذاكرته وهما :

بالعلم تحيا الامة العربية ... وبه تشع حياتها القومية
وبفضل انوار المعارف تنجلي ... حجب الظلام وتسطع الحرية

---

١) والد العقيد في الجيش اللبناني انطون الخوري رئيس المدرسة الحربية .
٢) انور امام اديب وشاعر وهو احد تلاميذ الخوري حنا في بانياس .

ولما انتهى الخوري حنا من القاء قصيدته اعطيت الكلمة لاحدى لجنات الاديبات فعثلت المنبر شاكرة الخوري حنا مثنية على بلاغته وفصاحته . معاتبة اياه لعدم اشارته الى الطائفة العلوية ومشايخها ؛ وفيما هي تلقي كلمتها والعبارات تتدفق على لسانها ؛ انشرأب الخوري حنا على المنبر . وسوقفها تهيبها فورّ ببيتين جامعين مانعين مقنعين دامغين على نفس وزن قصيدته وقافيتها وروبه . ماذا عساه يقول في هذا الموقف الحرج ؟ وكيف يتخلص من هذا المأزق ؟ اليكم ما اجابها به :

قامت تخاطبني بدة عليهـ لم قد نسيت مشايخ العلوية؟
فاجبتها . لا تعجبي بملامتي فمحبتي لعليكم سريـة

فصفق له الجمهور طويلاً وكبر الجميع ذكاءه وفطنته وسرعة خاطره وحسن تخلصه .

وافاك حوت يبلع الحيتانا

عام ١٩٣٣ كان سيادة المطران الياس شديد يقوم بزيارة الى اللاذقية نيابة عن غبطة البطريرك الماروني مار انطون بطرس عريضه . وكان برفقة المطران الخوري حنا صنوس وشقيق المطران الاستاذ نسيب شديد من اده في قضاء البترون .

ودعاهم الى تناول طعام الغداء في بيته قائمقام اللاذقية عبد الله الياس فلبوا الدعوة . وفيما هم على المائدة قدم طبق الدجاج للمطران اولاً ثم للخوري حنا ثانياً . ونسيب شديد الذي كان خفيف الروح يحب المداعبة والفكاهات حضرته النكتة لما راى الخوري حنا يغرف من طبق الدجاج النصيب الوافر فقال : هذا « الواوي »[1] لن يترك شيئاً من الدجاج .

فاجابه الخوري حنا : احفظ لسانك يا نسيب والاّ ... ثم حضرته النكتة فضحك وارتجل بضعة ابيات من الشعر اثبت البيت الذي لا يزال عالقاً في ذاكرة الرواة ؛ وهو يخاطب في صدره اللاذقية ويشير في عجزه الى الاستاذ نسيب شديد[2] .

« ان كان حوتك بالعاً يونانه وافاك حوت يبلع الحيتانا »

١) ان افراد الاسرة المعادية التي ينتمي اليها الخوري حنا ملقبون بالثعالب « واوي » .
٢) كان نسيب شديد بدنا ضخم الجثة .

الخوري حنا والخوري يوسف الحداد[1]

كان بين الخوري حنا طنوس والخوري يوسف الحداد صداقة شدت اواصرها حرفة الادب وعززتها زمالة في الكهنوت وفي التدريس. وفيما كانا مرة يتناولان طعام الغداء على مائدة البطريركية المارونية في بكركي اديرت اطباق الدجاج مع الارز على المدعوين الجالسين على المائدة ومر انطبق على الخوري يوسف الحداد فاحب ان يختار منه فخذ الدجاج دون الارز انما لم يشأ: حياء وتأدباً. ان يسقط قطعة الدجاج دون الارز فاعتمد الحيلة وشرع يحفر الارز ويزيله من تحت الفخذ حتى سقط اخيراً في صحنه.

وكان الخوري حنا يراقبه فضحك: فاغتاظ الخوري يوسف الحداد من ضحكة الخوري حنا التي لفت بها انتباه الجالسين حول المائدة الى تصرفه فاستاء وارتبك وكان حلو المعشر حاضر الذهن سريع الخاطر. فتغطية لارتباكه وقف وقال: «الخير يعرف اهله فتقدما» فاجابه الخوري حنا فوراً: مكملاً البيت: «من كثر نكشك في الاساس تهدما».

فاستملح الحاضرون حسن تخلص الاب حداد وسرعة خاطر الخوري حنا وصفقوا طويلاً لبادرة الاثنين التي اضفت على المأدبة جواً من المرح المستحب:

الخوري حنا والشيخ رشيد الخازن

كان الخوري حنا طنوس، وقد سيم كاهناً منذ مدة وجيزة، في زيارة للمطران يوسف صقر في بكركي عام ١٨٩٩. وحضر الى بكركي الشيخ رشيد الخازن قائمقام كسروان فدخل على المطران ولما وقع بصره على الخوري حنا ورآه زري المظهر، اشعث الشعر، طويل الاذنين سأله بلهجته الكسروانية الشهيرة، من اين انت يا شماس؟

- اجابه الخوري حنا: انا بدون استحقاق كاهن.

الشيخ رشيد: كان على ابيك ان يحلب لك قطيعاً من الماعز ترعاه بدلاً من ان يجعل منك كاهناً.

---

٢) يصح في فنين للكاهنين ما قيل في جرير والفرزدق: «الاول يغرف من بحر والثاني ينحت من صخر». فالخوري حنا كان ينشد الشعر كما ينساب ماء الجدول انسياباً ويترك ما ينظمه على سجيته دون تنقيح او تهذيب او تصحيح، بينما الخوري يوسف كان يعيد النظر في ما ينظم ويشبه تنقيحاً وصقلاً.

المطران صقر : الخوري حنا يا شيخ رشيد من الاشخاص الذين بهم نفتخر ونعتز فهو اديب وشاعر وخطيب .

الشيخ رشيد : ولكن لماذا اذنك كبيرتان مثل اذني الحمار ؟

الخوري حنا : (وقف) سبحانك يا رب كل شيء خلقته بحكمة ما عدا ذني التين كان يجب ان تضعهما في رأس هذا الشيخ السفيه .

فضحك عندئذ الشيخ رشيد واستملح النكتة واحب ان يمتحن ذكاء الخوري حنا فقال له : هل تستطيع ان تبرهن على اني سفيه . اجابه الخوري حنا : قال الحكماء امرء باصغريه قلبه ولسانه . وقال السيد المسيح . اللسان يفصح بما في القلب . وبما كان لسانك سفيهاً . فقلبك سفيه . واذا كان لسانك وقلبك سفيهين فكلك اذن سفيه .

فضحك الشيخ رشيد ضحكة مدوية وطلب من الخوري حنا ان يعيد هذا البرهان على مسمع من غبطة البطريرك الحويك .

الخوري حنا والمطران بولس عقل

في الثاني عشر من شهر آب عام ١٩٢٧ قام سيادة المطران بولس عقل بزيارة رعائيسة الى قرية غوسا في قضاء البترون . فدعاه الدكتور اديب بعسبوص[1] الى تناول طعام الغداء في داره . وفيما كان المطران على المائدة يستمع الى الشعراء يلقون في هذه المناسبة ما تجود به قرائحهم اذا بالخوري حنا يصل . كعادته . متأخراً ؛ ويجلس على كرسي شاغر بعيداً عن المطران . وبعد فترة من الوقت اثر انتهاء الشعراء من القاء قصائدهم انتبه المطران وصاحب الدار الى الخوري حنا فقال له المطران : اهلاً بالخوري حنا . متى اتيت وما بالك . خلافاً لعادتك ؛ صامتاً . الا تسمعنا شيئاً ؟

اجابه الخوري حنا : اخشى الاّ يصلك صوتي يا سيدنا .

المطران : صوتك ينفذ الفولاذ .

الخوري حنا : هل يجوز ان تستمعوا الى من هم في مقاعد « الترسيو »[2] بعد ان استمعتم الى من هم في مقاعد « البريمو »[3] .

---

١) والد الدكتور مالك بعسوص رئيس مجلس ادارة المشروع الاخضر .
٢) مقاعد الدرجة الثالثة .
٣) اي مقاعد الصدارة في الدرجة الاولى .

الدكتور بصبوص : اتتناسى خمر عرس قانا الجليل يا ابت ؟ وادرك المطران ما يعنيه الخوري حنا . فاستدعاه اليه : واجلسه الى يمينه موضحاً جواب الدكتور بصبوص : الخمر المعتّق آخر ما يقدم في الولائم .

وفي ما كان صاحب الدعوة يهم بالتقاط صورة للمطران والخوري حنا : اذا باحد المدعوين يستمهل الدكتور بصبوص قائلاً : لا تصور قبل ان يسمعنا الخوري حنا شيئاً .

وقف الخوري حنا وقال : مروا سيدنا .

فاقترح المطران . وقد اراد ان يضع سرعة خاطر شاعرنا على المحك : نظم بضعة ابيات تكتب تحت الصورة التي ستلتقط في هذه المناسبة . فما كان من الخوري حنا الاّ ان حك جبينه وارتجل فوراً هذه الابيات :

تجلى الرب في ست[1] بآب ... على جبل وفي مرأى عجيب
وفي ست وست[2] قد تجلّت ... بغومـا صورة الحبر الحبيب
الا فارسم وارخ جـل رسم ... لشخص العقل في دار الاديب

فوراً يراق من العروق دماء

كان ذلك نهار الاحد في السادس والعشرين من ايلول عام ١٩٤٣ يوم تنادى بعض شبان قريته وادباء جوارها لاحياء حفلة تكريمية للخوري حنا بعد ان قضى خمسة واربعين عاماً يعلم ويرشد ويهذب ويهدي ولم ينكر احد في تكريمه . وحرص اولئك الشبان على الا يطلعوا الخوري حنا على هذه الحفلة خوفاً من ان يتهرب ويتغيب عن القرية فيحرمهم بذلك فرصة تكريمه بحضوره .

وعندما اتخذت الترتيبات اللازمة وازف موعد الحفلة واجتمعت الجماهير ارسل الى الخوري حنا من يدعوه ويصحبه الى الحفلة . وحضر الخوري فالقيت خطب وانشدت قصائد . واتى دور شاعرنا لالقاء كلمة الختام فصعد الى المنبر : والدموع تنهال من عينيه لشدة تأثره ، وارتجل قصيدة وهو يجهش بالبكاء . فما بقي شخص بين الجمهور لم يبك .

وفي ما يلي بعض ابيات منها :

---

١) آب عيد تجلي الرب .
٢) اي ١٢ آب تاريخ ذلك اليوم .

غوما الفتية بلدتي الحسناء هي في سما النابغين سماء

وبعد تعزله بقريته وانتخي بها يقول :

كل امنى في ان ارى لبنانـنـا فردوس عدن ساد فيـه رخاء
في ان اراه دولة وشعارهـا حريـة وعدالة واخـاء
قولوا لمن يعتز في امواله شرف الشباب ثقافة وذكاء
وشهامة وحميـة ومروءة وحمـة لبلاده ووفـاء
ان الفتاة جمالهـا بخلالها حسن الفتاة طهـارة ونقـاء
وفتاة غوصا كل حسن قد حوت خلقاً وخلقاً فالثنـاء سواء
كحل بعينيها بدون تكحل سحر الشباب المقلـة الكحلاء
كم من فتى فتنت بهم لحاظها انى لمفتون العيون دواء
وطني عشقته في الصباح ولم احد عن حبـه لمـا اطل مساء
ويزيد حبي ساعة عن ساعة حتى تدق الساعـة الخرساء
لو اعوزت وطني الدماء ليرتوي

وهنا تعسر عليه انجاز البيت . فردد الشطر الاول مرة وثانية وثلاثاً ولم يفتح الله عليه بالعجز . عندئذ سحب احد الحاضرين مسدسه واقرغ رصاصاته في الفضاء . فما كان من الخوري حنا وقد التهب حماسه وبلغ به الحوس اشد حدوده الا ان امسك بالطاولة الصغيرة التي امامه وبحركة عصبية رماها وراءه فاتحاً ذراعيه صائحا :

فورًا يراق مـن العروق دماء

فاذا البيت بعد اكمال عجزه يصبح هكذا :

لو اعوزت وطني الدماء ليرتوي فورًا يراق مـن العروق دمـاء

خلصني الصليبي من صليبي

كان احد انسبائه خليل الخوري خليل من قرية مراح الزيات في قضاء البترون قد الم به وجع في عينيه . فقصد الطبيب شاهين الصليبي المتخصص في امراض العيون يستشفيه . ولما ابل من مرضه عاده الخوري حنا وراح - يرتجل الشعر مهنئاً اياه بشفائه . فقال له خليل الخوري خليل : مالك توجه الي القصائد وانا لولا الدكتور صليبي لكنت في حالة يرثى لها . لو تنظم لي بيتين او ثلاثة ارسلها الى الطبيب اشكره بها على الخدمة التي اسداها الي :

نكنت لك من الشاكرين. فقال له الخوري حنا لبيك. اذن ارسل له هذه الابيات :

سألت الناس عن طب لعيني فدلوني على ادهى طبيب
طبيب ما له في الارض ثان هو المشهور شاهين الصليبي
صليبي كان من وجع بعيني فخلصني الصليبي من صليبي

دين يفرق مبنيّ على الكذب

كان الخوري حنا عام ١٩٣٣ يدرس في الكلية الوطنية ببانياس (اللاذقية-سوريا) لصاحبها الاستاذ يوسف الخوري الباني. الادب العربي واللغة والترجمة. ففي اواخر السنة الدراسية كان طلابه قد تمرنوا على تمثيل مسرحية للخوري حنا عنوانها « العمران » وهي شعلة حماس واباء ودعوة الى التحرر. معظم اشعارها على وزن وقافية معلقة عمرو بن كلثوم تجد الحرية والشمائل العربية.

فعلى لسان زهير بن عمرو بن كلثوم يقول الخوري حنا :

حذار الايك كن حرًا وغرد ولا تعلق بفخ الناصبينا
فما اشهى الحياة اذا استتلت واشقاها اذا ما قيدونا
برانا الله احرارًا كراماً فيا قوم الطغاة ظلمتمونا

وعلى لسان عمرو بن كلثوم « حرام على المستعمرين الطغاة يستعبدون اسود الصحراء ونسور القلاة ؛ خلوا الفضاء لفارس الزرقاء ، ودعوا الوفاء لامة عرباء » .

وعندما يقول الملك عمرو بن هند للحارث بن حلزة الذي كان يحذره من غضبة الشعب « الشعب جمال ، بانفها خطام ، يقودها اطفال » ، يجيبه الحارث : « واذا هاجت الجمال فيا ويح الاطفال والرجال »[1] .

فقد حدث قبل موعد تمثيل المسرحية وبعدها ما هو جدير بالذكر انقله كما رواه احد تلاميذ الخوري حنا في تلك المدرسة الاستاذ انور امام.

روى الاستاذ انور امام ما اورده حرفياً : « قبل موعد الحفلة ببضعة ايام اتيت الى الخوري حنا في غرفته وكان كعادته مستلقياً على سريره يتفث

---

1) مقتطف من هذه المسرحية في الصفحة ٢٦٣ وما يليها.

دخان لفائفه في حلقات متصلة . وقلت له : الا تريد ان تلقي كلمة او قصيدة في الحفلة . اجاب . اني اتكلم من اول المسرحية حتى آخرها فقل انت ! ت اصبحت للملك اهلاً . اجبته انا ساكون في لباس التمثيل فكيف يتسنى ي ذلك ؟ عندئذ سرح الخوري حتا بصره في المجهول وغارت عيناه منتقلاً ن عالم آخر وبدأ يتمتم بنغمة يتصل الي وقعها ولا اتبين كلماتها . ثم اشعل لفافة من اخرى وقال : ان شئت ان تكتب فافعل . اما انا فلا اكتب خشية ن النسى . وبدأ ينظم وقد انعزل عما حوله وسبح في مسارح الخيال . وبدأت اكتب ما يمليه ارتجالا فاذا بين يدي القصيدة الشهيرة التي مطلعها :

يا روح يعرب جد العنصر العربي طال الثواء بلحد مظلم خرب

وجاء يوم الاحتفال — والكلام لابي امام — وعقدت بحة المدرسة عى وجيها بالمدعوين من سوريا ولبنان يتصدر صفوفهم حاكم دولة العلويين لفرنسي « شوفلر » وبين الفصلين الثاني والثالث اعتلى الخوري حة المسرح فاستقبل بعاصفة من التصفيق وبدأ يلقي قصيدته بصوته القوي النبرات ونقائه التعبيري وكل بيت منها يستعاد مرات ومرات .

يا روح يعرب جد العنصر العربي طـــال الثواء بلحد مظلم خرب
هبي من الرمس حومي فوق امتنا صبي عليها حيا نخوة العرب
تلك الحميا اذا جاشت مراجلها في الصدر لاشت حميا خمرة العنب
يا ابن الوليد وسيف الله منصلتاً ماذا الرقاد بحمص طيلة الحقب
انفض غبار الردى واستل حاوملك الصافي الفرند مصوغاً من ضيا الشهب
واقطع به رأس شيطان الخمول فقد ساد الخمول وبات العرب في كرب
يا خاملين اتقوا شر الخمول فما من خامل يرتقي في سلم الرتب
بني امية سودوا ان عهدكم قد كان بالفتح عهد الامة الذهبي
في الهند في السند في الافغان سطوتكم في الشرق في الغرب عن يعدو عن كثب

يا طارق الفاتح البلدان متضباً سيف الخطابة ما امضى ظبا الخطب
يا فاتح الغرب بعد الشرق منتصراً وفاتح البحر قبل البر بالقضب
سلبت من بطل الاغريق شهرته فيا لها شهرة تغني عن الحسب
هرقل عامود لقبته جبلاً لطارق خالد في ذلك اللقب
قم مع زياد خطيب العرب مستعراً لظى اشد اضطراماً من لظى اللهب
واظهر لهذا الملا طرا وقل لهم ان التعصب مدعاة الى العطب

جدودكم باتحاد الرأي قد فتحوا ... ممالك الارض من قطب الى قطب
وانتم مـا فعلتم في تفرقكم ... هل انزل الله ذا التفريق في الكتب؟
اوصى المسيح بحب الناس قاطبة ... حتى تكون جميعاً اخوة لاب
وسن احمد دستوراً لامتـه ... حتى توحد في مجموعها العصبي
انجيلكم يا نصارى في كنائسكم ... وفي الجوامع قرآن لمنتسب
تنقيبوا يـا رجال الدين واتعظوا ... ولا تشوهوا وجـه الحق بالريب
فالدين رابطة ما الدين تفرقة ... دين يفرق مبني عـلى الكذب

وتعالت هتافات الجماهير تغمرها نشوة الحماس . وقد استخفتها الحمية . مكبرة مهللة مترنحة . والتهبت الاكف مصفقة : وارتفعت الاصوات مستعيدة هذه الابيات . وباشارة باليدين يوقف الخوري حنا التصفيق والهتافات قبضاً العاصفة وتستكين وتنحبس الانفاس في الصدور : فالجماهير . وقد تسلط عليها ، رهن نبرة من نبرات صوته وبثة من لحائه . ويستأنف قصيدته :

اشد رابطة للناس عنصرهم ... اما اللسان فقد يغني عن النسب
لكل قوم من الاقوام مذهبه ... ومذهب الكل

ويتوقف شاعرنا ويجيل في الحضور عينيه الثاقبة النظرات فتقع على الاستاذ الشاعر نوفل الياس فيكمل البيت موجهاً اليه الكلام « احذر يا اخا العرب » ويجيبه نوفل الياس حالا : « حب الشرق والعرب » ويشير الخوري حنا برأسه ويكفه معبراً عن عدم رضاه عن الجواب قائلاً : لا . وتشرئب الاعناق وترهف الاسماع فاذا الخوري حنا يعيد البيت فيكمله على هذا الشكل :

لكل قوم من الاقوام مذهبه ... ومذهب الكل حب العنصر العربي
يا عنصراً طبق الدنيا بشهرته ... تفديك نفسي من الاكدار والكرب
يا فرع عدنان سدت الكون مستطياً ... متن السماكين فوق النجم والسحب
ابناء يعرب نفسي رهن عنصركم ... ان مت يوماً فدا كم صحت واطربي
ما رأيكم باختطاط العرب من افق ... العليا الى مسكن الاموات بالترب؟
لقد جرى في دماهم غير عنصرهم ... شأن الحديد مشوباً خالص الذهب
وبدلت صبغة الاعجام صبغتهم ... يعدي المخالط سوء الخلق كالجرب
ساد الاعاجم في الاعراب واحتكروا ... امر الجيوش فضاعت نعرة العصب

بنسعة من دعاة العرب رائدهم روح العروبة قامت دولة العرب
بنسعة من بني الاحرار قائدهم روح الجدود اعيد المجد للحقب
لا تعزلوا الشيخ ان فارت حميته فشب ينشد في آبائه النجب
لا تعجبوا يابني الاسلام من هوسي انا انا من صميم العنصر العربي

التبت الخلة . والكلام للاستاذ انور امام . بنجاح منقطع النظير . امام الحاكم الفرنسي « شوفلر » وسائر المديرين الفرنسيين وكبار موظفيهم فكان الانفعال ظاهراً على وجوههم والغضب بادياً على قسماتهم بعد ترجمة قصيدة الخوري حنا لهم واطلاعهم على معانيها ومراميها .

وكانت فاتين المسرحية والقصيدة ذيول ونتائج :

١) اذكت روح الاباء العربي والقومية العربية وبعثتا روح التحرر من قيود الاستعمار . والقصيدة ظلت سنين عديدة على كل شفة ولسان .

٢) وضع الخوري حنا بمسرحية « العمرين » ومسرحية « النعمان الخامس » التي مثلت في السنة السابقة ، الاساس للمسرح القومي في اللاذقية وبقيت باتياس لمدة طويلة مركز الاشعاع بالنسبة لهذا الفن .

٣) ثارت حفيظة الفرنسيين على الكلية الوطنية فقطعوا عنها المعونة السنوية التي كانت تنالها من المفوضية الفرنسية كما حرموها الاساتذة الفرنسيين العسكريين خريجي الجامعات الفرنسية الذين كانوا اثناء خدمتهم العسكرية الالزامية في سوريا يكلفون التدريس في المعاهد لقاء رواتب زهيدة رمزية.

٤) اصبحنا نحن تلاميذ الخوري حنا في نظر الفرنسيين من العناصر الخطرة التي ينظر اليها الاستعمار بريبة وشك .

٥) قام الفرنسيون بضغط كبير لابعاد الخوري حنا طنوس عن سوريا ولجأوا الى البطريركية المارونية في لبنان آنذاك فاستدعته اليها وغادر باتياس في صيف ١٩٣٣ ولم يعد اليها ، فكان آخر عهدنا به . (انتهى ما رواه الاستاذ انور امام) .

القصيدة التي شفعت به وخلصته من الابعاد عن لبنان

لبى الخوري حنا طنوس دعوة البطريركية المارونية اليها وغادر باتياس. وكان الفرنسيون يتوخون ابعاده عن لبنان ليلا وساطة غبطة البطريرك الماروني

الذي تذرع بقصيدة للخوري حنا في الفرنسيين فنفعت به لنبيه وخلصته من التدابير التي كانوا يزمعون اتخاذها بحقه .

اما القصيدة فقد انشدها في احتفال اقيم في طرابلس لضباط الجيش الفرنسي بعد الاحتلال ومطلعها :

حيوا الجند وحيوا صاحب العلم حيّوا الاسود سبع الحرب لا الاجم

وقد جرى له في هذه الحفلة نادرة يجمل بنا ان نذكرها .

كانت الساحة المعدة لحفلة المهرجان غاصة بعشرات الالوف من الناس تقاطروا من كل حدب وصوب لحضور الحفلة الخطابية ومشاهدة الضباط الفرنسيين بعد تلك الحرب الطاحنة التي انتصر فيها الحلفاء وفي مقدمتهم فرنسا .

وكانت منصة الخطابة في آخر الساحة وقد اتخذت التدابير اللازمة لمنع اي كان من الوصول اليها او الى الصفوف الامامية التي كانت مقاعدها مخصصة لكبار الضباط الفرنسيين والرجال الرسميين . والى جانب منصة الخطابة المقاعد المعدة لخطباء الحفلة . ابتدأت الحفلة وتوالى على المنبر بعض الخطباء والخوري حنا طنوس لم يحضر بعد . واذا به يأتي متأخراً كعادته مهرولا متعثراً بجبته ويجتاز الصفوف قاصداً مقعده بين الخطباء . فما كان من المكلفين بالنظام الا ان اعترضوه وقال له احدهم : « الى اين يا محترم ؟ عد الى الوراء » . اجابه : « اريد ان اجلس في مقعدي » .

— لا مكان لك في الامام .

— بلى ازى مقعداً شاغراً .

واذا بمخاطبه يقول له بهزء وسخرية وبلهجة هي الى الغضب اقرب منها الى اللطف : « قلت لك عد الى الوراء . المكان الشاغر ليس لك ولا لامثالك . انه للخوري حنا طنوس » . وتنبه احد الحضور الى الحوار بين الاثنين فهب من مقعده موفراً على الخوري حنا عناء التعريف عن نفسه قائلاً : « اهلاً بالخوري حنا اهلاً » .

فتبين عندئذ المكلف بالنظام والتشريفات ان الكاهن الزنّ الثياب الزري الشكل انما هو الخوري حنا طنوس عينه الذي يحتفظ له بمقعده بين الخطباء فافسح له المجال وقاده الى مقعده معتذراً له عما بدر منه لعدم معرفته اياه .

اما القصيدة فنقتطف منها الابيات التالية :

حيّوا الجنود وحيّوا صاحب العلم — حيّوا الاسود سباع الحرب لا الاجم
حيّوا فرنسا بصوت هاتف طرباً — تحيا فرنسا ليحيا سائر الامم
يا محيّاك فوق الكل يسا علماً — قد بت اشهر من نار على علم
يا راية الحب في الآفاق ما خفقت — الا فما خفق القلب البطي الهمم
مثلث اللون تسبي الخلق طلعته — رمز المحبة والاحسان والكرم
فسان حمرته باتت تحدثنا — اني فديت الملا طرا بسفك دمي
قلب البرايا فرنسا ذائراً دمها — وهل حياة بلا قلب لذي نسم
لولا فرنسا لبات الجور منتشراً — تسطو الذئاب على الحملان والغنم
وان زرقته تسمو بساعدنا — حو السما مصدر الانوار والنعم
ففي فرنسا اضاء العلم فانتشرت — انواره في بلاد العرب والعجم
نور الحضارة منها كان منبعثاً — سر انار الورى في حالك الظلم
رجالها سابقوا الاقوام قاطبة — بكل فن فحازوا السبق من قدم
واليوم فوق غدا في الحرب ليث شرى — فوق الفوارس والابطال كلهم
في الرين في المرن في الالزاس سطوتهم — في البحر في الجو في الادغال في القمم
رأيت في زرقة الالوان عزتهم — اما البياض فرمز عن طباعهم
طبع الفرنسيس ما اسماك في نظري — طبع الفرنسيس كنه اللطف والكرم
الحزم والعزم والاقدام شيمتهم — والعدل والنبل والايناس في عظم
انصر اخي فرنسا وانصر الحلفا — ووطد السلم عربوناً لتصرهم

فلولا هذه القصيدة التي تذرع بها غبطة البطريرك الماروني فشفعت بالخوري حنا لدى الفرنسيين : لكانوا اصروا على ابعاده عن لبنان كما ابعدوه عن بانياس عقب قصيدته عام ١٩٣٣ في العنصر العربي والاثر الذي تركته في نفوس اهالي اللاذقية عامة وبانياس خاصة .

طباعه واخلاقه من خلال نوادره

كان الخوري حنا طنوس رضي الطباع حلو المعشر يرتاح اليه جليسه . وقلما نلتقي شخصاً من الذين عرفوه وعاشروه الا يذكر عنه من النوادر ما يتصف بخفة الروح ويجلو في شخصيته ما هو دون متناول الدرس والتحليل .

وفي ما يلي بعض ما يروى عنه ويحكى :

انا : كل عمري: الاول يا سيدنا

قام المثلث الرحمات البطريرك غريغوريوس عندما كان مطراناً: بزيارة رعائية الى بانياس فجرت له استقبالات رائعة وحفلات عامرة. وفي غداة تلك الحفلات مأدبة اقامها في بيته احد اعيان المواربة[1] في بانياس على شرف سيادته. واثناء تناول الطعام كان من الطبيعي ان ينطق الخطباء والشعراء لالسنتهم وقرائحهم العنان: مثنين على جهود سيادته وتضحياته ولا سيما خلال سني الحرب الكونية الاولى حيث انه رهن صليبه ليخفف من مصائب من عضهم الدهر بنابه وجارت عليهم احوالهم. وفيما كان الخطباء والشعراء مسترسلين في مديحهم دنا احد الحضور[2] من الخوري حنا طنوس واراد ان يستفز سرعة خاطره فاسر في اذنه ما يلي: «كنائهم مديحاً. الا يوجد للمطران غريغوريوس سيئة واحدة... ان كنت جريئاً تكلم...» فاذا بالخوري حنا. بعد ان انهى الخطباء مدائحهم: يقف ويقول: «لقد اكثر الخطباء من مديح سيادة المطران غريغوريوس وكافي بهم خجلوا او جبنوا فلم يذكروا ما عنده من سيئات. اما انا فاعرف له سيئة لا تضاهيها سيئة.»

هنا جمد الحضور واشرأبت الاعناق وارهفت الاسماع. واذا الخوري حنا يستأنف كلمته قائلاً: «اما سيئته هذه فتصرفه بما ليس له. انه يجازف بصحته في سبيلنا: وصحته هي ملكنا لا ملكه». فعلا التصفيق وكان لكلمة الخوري حنا: التي مدح بها تحت ستار القدح: الصدى المستحب.

واستفاد احد الحضور[3] من هذا الجو المرح وسأل سيادة المطران: من اكبر سناً سيادتك ام الخوري حنا؟

اجاب المطران: «انا والخوري حنا بعمر واحد وكنا في المدرسة معاً نتنافس على الاولية فكنت انا الاول خلال اسبوع والخوري حنا الاول في الاسبوع التالي» هنا وقف الخوري حنا واجاب بحدة وانفعال «كلا يا سيدنا انا كل عمري الاول».

---

١) خليل ذيب
٢) الخوري شكري ذيب
٣) صاحب ذيب

شبردم شبردم

الخوري حنا لكثرة ما انف من المسرحيات مجد فيها البطولة والرجولة وتغلغل في نفسانية اشخاصها ربت فيهم روح الفروسية والعنفوان والجرأة والاقدام اصبح في ما بعد يعيش فيهم ويتصرف تصرفاتهم حتى وقع له عام ١٩٢٥ حادث مشؤوم افقده عينه اليمنى .

كان . عندما يضطر الى الانتقال من قريته الى « ميفوق » حيث كان يدرس ، او الى سواها من القرى . يمتطي فرساً لقلة السيارات عند ذاك . وعندما يصل الى منبسط من الارض كان ينحني فوق رأس الفرس فيشد بعذرتها صائحاً « شبردم شبردم » فاذا الفرس تسرح وتعدو به حتى توهم من كان يرافقه ان الفرس انما اسرعت لدى سماعها كلمة « شبردم » وان الخوري حنا طنوس مثل سليمان الحكيم يخاطب الحيوانات بلغة خاصة .

وصدف انه كان عام ١٩٢٥ مع ابن اخيه الاب يوسف فارس في قرية زكرون (قضاء الكورة) التي لم تكن قد وصلتها بعد بشكا طرق السيارات . ولما احب النزول الى شكا اعد من كان في ضيافتهم له وللخوري يوسف فارس ولمن سيرافقانهما فرساً وبغلاً وحمارين . . ولما كان الخوري حنا سنذاك في الستين من عمره خشي اصحابه ان يمتطي الفرس وهي اصيلة ما كانت تسمح لغير صاحبها ان يمتطيها . فاعدوا له البغل . لكن الخوري حنا اصر على ركوب الفرس ولما حذروه منها ولفتوا انتباهه الى الخطر الذي يعرض له نفسه بامتطائه تلك الفرس ، راح الخوري حنا يتبختر ويتمرجل كانه شاب في ريعان العمر او احد ابطال مسرحياته متغنياً : انا عنتر بن شداد . انا الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار : انا في الميدان لا يجاريني افرس الفرسان انا انا . . .

واخيراً اذعن لرغبته اصحاب الفرس واركبوه اياها بعد اسداء النصيحة له بوجوب الحذر والانتباه والسير بتؤدة كي لا يحدث له مكروه .

ولكنما الخوري حنا ما كان يبعد قليلاً عن قرية « زكرون » ويصل الى مشارف « شكا » حتى شاء ان يمثل دور الفروسية والبطولة : فانحنى فوق رأس الفرس وصاح : « شبردم شبردم » شاداً بعذرتها كما اعتاد ان يفعل . ولكن هذه الفرس الاصيلة التي ما كانت تلقى من اصحابها الا كل عناية ورعاية وحسن معاملة وترفيه ، ضايقها الشد بشعرها فجمحت بالخوري حنا وراحت

تنبه الارض نبياً . ولم تتوقف الا بعد ان وقع عن صهوتها فاقد الرشد من شدة الصدمة .

واسرع اليه من كان برفقته . ورفعوه عن الارض . فاذا عينه اليسنى يسيل منها الدم . واجريت له الاسعافات اللازمة واخذ الى الاطباء للمعالجة فضمدت جراح وجهه . وعولجت الرضوض في جسمه . لكنما عينه لم يتمكن الاطباء من اعادة النور اليها . فظل اعور السنوات العشرين التي عاشها بعد ذلك الحادث المشؤوم .

قد يدخل الوثني السماء قبلي

كانت عظاته في الكنائس انسانية شاملة يتناول فيها القضايا الاجتماعية . القضايا البشرية التي تهم جميع الناس على مختلف اديانهم ومذاهبهم وطوائفهم ومعتقداتهم . وهذا هو سر اقبال غير المسيحيين على سماع عظاته سواء كان في كنائس بيروت او في بانياس او في طرابلس . فالخوري حنا الذي كان يفهم الدين بجوهره لا بقشوره وينظر اليه من خلال الاعمال والنيات كان السباق في الدعوة الى الالفة والمحبة والتسامح .

وقد روى احد عارفيه[1] ان الخوري حنا كان يعظ دائماً ايام الاحاد في الكنيسة خلال السنين التي قضاها في بانياس . وليلة احد الاحاد طلب منه ان يصطحب معه الى الكنيسة اكثر عدد ممكن من رفاقه الشبان على مختلف طوائفهم . ومذاهبهم ليسمعوا عظته فلبى راوي القصة رغبة الخوري حنا وحضر في اليوم التالي القداس ومعه عدد من الشبان . وبعد قراءة الانجيل القى الخوري حنا عظة ورد فيها ما يلي :

« ايها الابناء الاحرار . سألني امس بعض بسطاء العقول : « هل يدخل السماء غير المسيحيين » ؟ (انتفض الخوري حنا معلقاً على هذا السؤال) هذا هو الكفر بعينه فالسماء ليست وقفاً للمسيحيين دون غيرهم . وانا اصارحكم ، وانا بين يدي الله ، بانه قد يدخل الوثني الذي يعبد الاوثان والنار الى السماء قبلي انا وقبلكم ، اذا كان يقوم عن ايمان وحسن نية باعمال انسانية مفيدة لبني البشر الخ ...)

---

[1] الخامي شكري ديب (بانياس – سوريا) .

فكان لكلمته هذه احسن الوقع واطيب الاثر في نفوس الحاضرين . حتى ان غير المسيحيين كانوا في الآحاد التالية يقبلون بعدد وافر الى الكنيسة لسماع عظاته .

الصدق المنجي

كان ولوعاً بالتدخين حتى ان الدقة ما كانت تفارق شفتيه . وحدث له مرة انه بعد قضاء اجازته في لبنان عاد الى بنياس وبعد حقيبة سافر بالقطار المغرب . وعند وصوله الى الحدود اوقفه رجال قوى الامن ومرضفر شركة التبغ والتنباك وسألوه قائلين : هل فيك هذه الشطة يا بونا ؟ اه جب لكل بسطة . فيها دخان . فاستغربوا هذا التصريح لان عقب من يتعاطى معه تبغ مهرب صارم جداً وقالوا : شو ؟ اجابهم : صدقوني معي دخان . عندئذ ابتسموا وقالوا : طيب اكمل طريقك ولكن لا تمزح معنا مرة ثانية .

لا اعيد الى جيبي ما خرج منه

كان زاهداً في الدنيا وخيراتها . لا يقدر للمال قيمة . ولا يدخر لغده ما يصل منه الى يده . لذلك كان دائماً خالي الوفاض . فارغ الحفظة . يصرف ما تيسر له من المال بسرعة ولذة .

وقد حدث مرة انه كان في حي الاشرفية ببيروت عند احد انسبائه . واراد الانتقال الى ساحة الشهداء لتنله من هناك سيارة الى قريته . ولما كان الجو ماطراً يومذاك احب نسيبه ان يؤمن له سيارة توصله تواً الى موقف سيارات قريته ؛ فيجنبه بذلك مشقة التنقل من مكان الى مكان تحت الامطار .

وكان لدى الخوري حنا : ساعتذاك : مائة وخمسون ليرة لبنانية قبضها من المطبعة الكاثوليكية ولم يتيسر له بعد صرفها او اضاعتها . فخشية ان يفقدها اثناء تنقلاته : وخلال دفعه اجر السيارة : حرص نسيبه على ان يستخرج : من المبلغ الذي لدى الخوري حنا . ليرة ونصف الليرة وضعها في جيبه اليمنى كاجر السيارة التي ستقله الى ساحة الشهداء . ووضع الباقي في جيبه اليسرى فاصلاً بذلك بين ما يجب ان يدفعه للسيارة وما يجب ان يبقى معه ، تلافياً لكل خطأ او سهو يتعرض له الخوري حنا .

واوقف نسيبه سيارة طلب من سائقها ايصال الخوري حنا الى موقف

سيارة قريبه في ساحة الشهداء لقاء ليرة ونصف . ولما وصل الخوري حنا الى حيث يقصد احب ان ينقد سائق السيارة الاجر المتفق عليه لكنما تعذر عليه ان يمد الى جيبه اليمنى يده التي كان حاملاً بها حقيبته . فمد يده اليسرى الى جيبه اليسرى واخرج منها قطعة نقدية كانت من فئة العشر ليرات واعطاها السائق شاكراً . ولما احب السائق ان يرد له الرصيد اجابه : ابقيها معك . هي نصيبك انا لا اعيد الى جيبي ما خرج منه .

الله اشفق واكرم

في صيف عام ١٩٤٠ مرت امرأة فقيرة على بيت الخوري حنا تستعطي وكان آنذاك وحده على مدخل البيت فراح يفتش في محفظته وينقلب جيبه فعثر على ليرة لبنانية هي كل ما كان لديه ، فاعطاها الفقيرة . وفيما كان ينتدها اياها قدمت امرأة من انسبائه ولامته على اسرافه ، نظراً للعسر الذي كان فيه وقالت : كيف تعطي الفقيرة ليرة لبنانية وانت احوج منها اليها. اما كان بامكانك ان تحسن اليها برغيف من الخبز او قليل من الزيت والبرغل . اجابها : شفقت عليها فقالت له : اما تشفق على نفسك ؟

عندئذ تأثر الخوري حنا من كلام نسيبته وصاح مؤنباً : اصمتي يا امرأة . من لا يشفق على الفقراء لا يشفق الله عليه . الا تعرفين انه سبحانه وتعالى اشفق واكرم .

وفي صباح اليوم التالي شوهد الخوري حنا مهرولاً الى بيت نسيبه مهللاً صائحا : اما قلت لك ان الله اشفق وارحم . هذه حواله مصرفية بمبلغ اثنين وعشرين دولاراً وردتني الساعة من اميركا كحسنة قداديس .

تواضعه

وعلى قوة ذكائه وسعة اطلاعه ، وشامل ثقافته وعمقها ، كان متواضعاً وديعاً ، لا يشعر جليسه الذي لا يعرفه بان الذي امامه على شيء من العلم والثقافة ، لان منظره وشكله الخارجي واشاله ثيابه ما كانت تدل ، قبل ان يتكلم ، على انه يعرف حتى الكتابة والقراءة .

وحدث له مرة انه كان في نادي الشبيبة الكاثوليكية جالساً على كرسي ينتظر ابن اخيه الاب يوسف فارس الذي كان وقتذاك مديراً للنادي

المذكور . وشاء ان يسلي ربها يأتي الاب فارس فتناول الصحيفة الفرنسية « لوجور » وشرع يقرأ فيها وقد ادناها كثيراً الى عينيه لانه كان في شيخوخته ضحيح البصر . ومر بقربه شابان من تلاميذ جامعة القديس يوسف لا يعرفانه الاّ اديباً . ولما شاهداه يطالع في صحيفة فرنسية هزئا به واخذا يضحكان ويتندران عليه . ويتحادثان باللغة الفرنسية عنه . وهو جالس قريبا . وشرعا يتبادلان النكت بشأنه . بهزء وسخرية . وهو صامت لا يلتفت بهما كانه يجهل الفرنسية ولا يفهم ما يدور بينهما من حديث .

ثم احب الشابان ان يختبرا به ويداعباه فقال له احدهما بالعربية : ماذا تقرأ يا محترم ؟ اجابه . الخوري حنا : هذا الجرنال . وسأله الثاني . هل تحسن قراءة اللغة الفرنسية ؟ اجابه : قليلاً . فسأله الاول : وهل تفهم ما تقرأ ؟ فرد عليهما بالفرنسية متعمداً اساءة اللفظ كي يبقي الشابين على وهمهما فلا يخجلان اذا ادركا انه يتقن الفرنسية وانه فهم ما دار بينهما من حديث . اجاب : « ان بي » im pé اعني قليلاً . وفيما هم في الحديث اذا الاب فارس يقبل ويسرع الى الخوري حنا موهلاً مرحبا . والتفت بالشابين اللذين كانا من تلاميذه في صف البيان قائلاً : هل تعرفان هذا المحترم ؟ انه الخوري حنا طنوس بشحمه ولحمه . الذي كثيراً ما حدثتكم عنه وحفظتم روائعه الشعرية ومثلتم مسرحياته الشهيرة .

وكم كان خجل الشابين كبيراً عندما ادركا ان هذا الكاهن الذي سخرا منه وهزئا به ظناً منهما انه يجهل الفرنسية ولا يفهم ما يدور بينهما من حديث بشأنه ؛ كان العلامة الكبير والشاعر الموهوب الذي يجيد الفرنسية احسن منهما . فاحمر وجهاهما خجلاً وتواريا مسرعين .

مقدرته على الترجمة

نعم هذا العلامة ؛ الذي تجاهل اللغة الفرنسية كي لا يجرح كرامة الشابين عندما يدركان انه فهم ما دار بينهما من حديث ؛ كان يجيد الفرنسية ، كاحسن ابنائها . وكانت له مقدرة فائقة الحد في ترجمتها وتعريب روائعها نثراً وشعراً وبامانة مدهشة .

وعن مقدرته في نقل روائع الادب الفرنسي الى اللغة العربية يتحدث عارفوه الاخيار المدهشة . وقد روى الاستاذ جوزف خياط بهذا الصدد النادرة التالية :

« كنت ادرس عام ١٩٢٧ الادب الفرنسي في معهد ميفوق . في قضاء جبيل . وفي احد الايام (الكلام للاستاذ خياط) اتيت بقصيدة لالفرد دي موسه انشدها باعجاب وحماس . فقال الاب الرئيس : ان الخوري حنا ينظم ارتجالاً ما هو افضل منها . وكان بيني وبين الاب الرئيس شرط ورهان . فالقصيدة الفرنسية « الراين الالماني » le Rhin Allemand وهي رائعة جداً لا يمكن تعريبها بالسهولة التي يتوقعها الاب الرئيس . فاستدعى الخوري حنا وسأله نقلها الى العربية شعراً . فهرب الخوري حنا كعادته متذرعاً بضيق الوقت وبعدم استعداده لذلك وتتذاك . ولما اصر عليه الاب الرئيس والح . تنحنح الخوري حنا وقال : اسمعنا اياها يا استاذ . فانشدها واذا الخوري حنا يترجمها شعراً ارتجالاً وفوراً وامام جمهور من الرهبان واساتذة المعهد : بينهم مدير المعهد الاب بطرس الخوري . ووكيل عام الرهبانية البلدية الاب مرتينوس طربيه الذي اصبح فيما بعد رئيساً عاماً للرهبانية المذكورة . والاب جرجس المعادي رئيس المعهد ، والاب مخايل خليفة رئيس الدير .

القصيدة يجيب بها الشاعر الفرنسي « الفرد دي موسه » على اغنية للشاعر الالماني بوكر Buker يقول فيها للفرنسيين : « لن تروا نهرنا الراين الالماني » .

وعندما استولى الفرنسيون على نهر « الرين » نظم « موسه » هذه القصيدة التي اثبتها في ما يلي :

Nous l'avons eu, votre Rhin allemand
il a tenu dans notre verre
Un couplet qu'on s'en va chantant
Efface-t-il la trace altière
Des pieds de nos chevaux marqués dans votre sang?

Nous l'avons eu votre Rhin allemand
Son sein porte une plaie ouverte
Du jour où Condé triomphant
A déchiré sa robe verte
Où le père a passé, passera bien l'enfant.

Nous l'avons eu, votre Rhin allemand
Que faisaient vos vertus germaines
Quand notre César tout puissant
de son ombre couvrait vos plaines?
Où donc est-il tombé, ce dernier ossement?

Nous l'avons eu, votre Rhin allemand
Si vous oubliez votre histoire
Vos jeunes filles, sûrement
Ont mieux gardé notre mémoire
Elles nous ont versé votre petit vin blanc.

S'il est à vous, votre Rhin allemand
Lavez-y votre livrée
Mais parlez-en moins fièrement
Combien, au jour de la curée
Étiez-vous de corbeaux contre l'aigle expirant?

Qu'il coule en paix, votre Rhin allemand
Que vos Cathédrales gothiques
s'y reflètent modestement
Mais craignez que vos airs bachiques
ne réveillent les morts de leur repos sanglant.

وكنت (يقول الاستاذ خياط) كنا انتهيت من انشاد مقطع ، يقوم الخوري حنا فوراً بارتجال تعريبه شعراً . حتى عرب كامل القصيدة بسرعة لا يصدقها غير من كان حاضراً ذلك الاجتماع .

اما القصيدة كما عربها الخوري حنا فاثبتها في ما يلي تأكيداً لدقة الترجمة واجادة التعبير :

نلنـــاه حقاً ذلك النهرا . وغـــدا بمحجمنـــا لكم نذرا
انشيد شعر منشد هوساً يمحو سنابك خيلنا الحمرا
وعـــلى السنابك من دمائكم اثر يزرّ علاءنا فخرا
احرى بكم ان تسكتوا احرى
نلنـــاه حقاً ذلك النهرا اذ حاز كوندي القائد النصرا
اذا شق برداً اخضراً علماً في الصدر جرحاً دامياً اجرى
هلا يمر الابن منتصراً وابود حقاً قبلـــه مرا ؟
احرى بكم ان تسكتوا احرى
نلناه حقاً ذلك النهرا في عهد قيصرنا القوي قدرا
جرمان ما صنعت بسالتكم اذ رام قيصرنا لكم قهرا
غطى السهول يظل هيبتـــه اشلاؤكم انتم بهـــا ادرى
اين ارتمت اشلاء اخركم ؟ احرى بكم ان تسكتوا احرى

نلتاذ حقاً ذلك النهرا والامر فينا لم يعد سرا
فاذا نسيتم ذكر والدكم فبناتكم قد تحفظ الذكرا
صبت لنا من خمركم فغدا من ابيض في الكأس معتصر
ان كان نهركم غدا نكم والسر مني ينبش الصخرا
فليجر نهركم على مهل ولتعكس ابراجه الكبرى
بمياهه من دون غطرسة وحذار الخانا حوت سكرى
فلقد تنبه من مراقدهم موتى استراحوا . فاحذروا النشرا
احرى بكم ان تسكتوا احرى

تعريبه ارتجالا قصيدة « لافونتين » « الحيوانات المصابة بالطاعون »

روى احد تلاميذه في بانياس الاستاذ انور امام قال :

سنة ١٩٣١/١٩٣٢ كان الخوري حنا يدرسنا الادب العباسي وكنا نعالج المواضيع التي يقترحها علينا ليعود فيصلحها . وعندما يجد ان طالباً اجاد في موضوعه كان يهش وتنبسط اسارير وجهه وتومض الفرحة في عينيه. وفي احدى المرات اقترح علينا تعريب قصيدة الشاعر الفرنسي « لافونتين » التي عنوانها « الحيوانات المصابة بالطاعون » . فترجمتها انا شعراً لاني كنت قد بدأت اعالج الشعر بيني وبين نفسي . متأثراً بالجو الذي يحيط بي. فانا بين رئيسين روحيين والدي واستاذي : وكلاهما شاعر واديب . ولما جئته بالترجمة التفت الى رفاقي الطلاب وقال : هذا انور قد ترجم القصيدة شعراً. وساحاول انا ترجمتها شعراً وانتم الحكم فكونوا حكماً غير متحيز لزميل (يقصد رفيقهم انور امام) او متعصب لرفيق (يقصد نفسه لانه كان دائماً يعتبر نفسه رفيقاً لطلابه) . ومضى يترجم القصيدة فبدأ بالمطلع وهو لي :

داء يثير الرعب في الاحشاء داء يراد تغيظ العليـاء
حتى تقاصص حرية الغبراء

فاعترضت قائلاً : هذا المطلع انما هو لي يا ابانا . فاجاب : « لا بأس. انه جيد واستعيره منك » ومضى يعرب باقي القصيدة شعراً وارتجالا وكأنه يقرأ في كتاب، حتى اتمها .

القصيدة التي مات في صدره

واذا كان الحديث يجر الحديث فني اعتبرني اخللت ببراجي اذا لم اقص نادرة ثانية رغبة في اعطاء فكرة واضحة وافية عن شتى شخصية الخوري حنا الادبية .

بعد ان وقع عن سلم المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٤٦ وهو عائد منها بعد تسليمه اياها قسماً من تعريب رواية « دون كيشوت » ادخل مستشفى « اوتيل ديو » في بيروت ولم يخرج منه الا جثة هامدة . بعد اربعة ايام من الحادث . عدته في المستشفى مساء يوم الجمعة في ٢٢ اذار اي عشية اليوم السابق ليوم وفاته فقال لي : وهو يتقلب على فراش الآلام : هل يمكنك ان تأتيني بقصيدة « تناغم المساء » Harmonie du soir فقلت له : لماذا ؟ اجاب : احب ان اعرب هذه القصيدة شعراً فتكون خاتمة ما انتجت. اني اشعر في مساء حياتي بدنو اجلي . واشعر بطمأنينة ونشوة حيية تغمرني. وتذكرني بقصيدة « بودلير ». فتش عنها وستجدها في مجموعة « زهور الشر ». les Fleurs du Mal . انا لا ازال اذكر منها المقطعين الاولين : انما احب ان اعيد قراءتها لاستوعبها كلها قبل مباشرة التعريب . وانشدني الخوري حنا المقطعين الاولين وهو في الثمانين من العمر . اما القصيدة التي هي من اروع شعر الادب الفرنسي فاثبتها في ما يلي :

Voici venir les temps où vibrant sur sa tige
Chaque fleur s'évapore ainsi qu'un encensoir
Les sons et les parfums tournent dans l'air du soir
Valse mélancolique et langoureux vertige.

Chaque fleur s'évapore ainsi qu'un encensoir
Le violon frémit comme un cœur qu'on afflige
valse mélancolique et langoureux vertige
Le ciel est triste et beau comme un grand reposoir.

Le violon frémit comme un cœur qu'on afflige
Un cœur tendre, qui hait le néant vaste et noir!
Le ciel est triste et beau comme un grand reposoir;
Le ciel s'est noyé dans son sang qui se fige.

Un cœur tendre, qui hait le néant vaste et noir,
du passé lumineux recueille tout vestige
Le soleil s'est noyé dans son sang qui se fige...
Ton souvenir en moi luit comme un ostensoir.

ان يتذكر الخوري حنا طنوس وهو في الثمانين من عمره الشاعر الفرنسي « بودلير » لدليل على اصالة في الادب . وان يتذكر ان هذا الشاعر قصيدة « تناغم المساء » لبرهان قاطع على شمول اطلاعه .

وان يتذكر ان هذه القصيدة هي في مجموعة « زهور الشر » : وان ينشد منها مقطعين : وان يرغب في تعريبها : كل ذلك دليل على قوة حافظته . وعلى اية عافية ادبية كانت تزخر بها شخصيته الفذة .

ودعته على ان اعود اليه في اليوم التالي . ولكن ما كاد يطل صباح ذلك النهار حتى بلغنا انه فارق الحياة . وانتقل الى العالم الثاني .

نعم . مات الخوري حنا وفي قلبه الكبير امنية . وفي دماغه الذي لم يهرم ولم يشخ : رائعة شعرية دفنت معه .

=

النابغة البائس

« لم استفد من كل تآليفي الا التصفيق » . هذا ما قاله لي الخوري حنا طنوس بغصة ومرارة . لكنا التصفيق لا يطعم خبزاً . ولا يشبع جائعاً . ولا يروي ظمآن : ولا يكسو عرياناً . وظل الخوري يوحنا يجد ويكد طوال حياته . وحتى في الثمانين من عمره كان مكباً على رواية « دون كيشوت » ينقلها الى العربية كسباً لكفافه . اما تآليفه . اما مسرحياته فكثيراً ما كان يغير عليها طفيليو الادب فيقتبسون منها الفصول الكاملة ويمثلونها دون معرفته او استئذانه : او ينتحلون منها ، ما يروق لهم منها ويتسبونها لانفسهم دون ان يردعهم رادع او يعصمهم عن ذلك عاصم : كما حدث لمسرحيته « البطل المجهول » و « امير الارز » .

انتحال مسرحية « البطل المجهول »

فعام ١٩٤٧ اقدم شخصان على تقديم مشهد بواسطة الاذاعة اللبنانية : اقتطف من تمثيلية « البطل المجهول » دون ذكر مؤلفها الخوري حنا طنوس ، كانما آثار علامتا مال سائب ، او كرم على درب : يسطو عليه من يشاء . وهذا التصرف الشاذ حملنا على توجيه كلمة بهذا الصدد على صفحات جريدة « البرق » نثبتها في ما يلي :

«قدمت الاذاعة اللبنانية . الساعة الثامنة والنصف من مساء الجمعة» «الثالث مشهداً تمثيلياً « الوطن اولا » دون ان تذكر اسم مؤلفه . فلس هو» «يا ترى ؟ أوجد هذا المشهد التمثيلي على قارعة الطريق ؟ أم ان مؤلفه مجهول» «تستحي الاذاعة من ذكر اسمه ؟ وهل ان السيدين اللذين دفعتهما غيرتهما» «الى تمثيله اشهر منه ليعرف عنهما ؟»

«اسئلة لم نكن نوجهها الى الاذاعة اللبنانية لولا ما في عملها من شذوذ» «وطعن في الخلق والكرامة .

«ليس مؤلف الرواية مجهولا او نكرة . ونحن على ادراكنا العادي نعرف» «ان الرواية تنسب الى مؤلفها اولاً ثم الى ممثلها .

«ومؤلف الرواية الذي استحت الاذاعة من ذكر اسمه . هو العلامة» «الخوري حنا طنوس . ولئن مات السنة الماضية . فانما هو خالد في آثاره» «ومنتجات خياله . ومولدات عقله . وانه حي في كل قلب وليختلج في حنايا» «كل من عرفوه .

«وان جهلت الاذاعة اللبنانية من هو او تجاهلته . وان عميت عن الحقيقة» «او تعامت عنها : فهذا لا ينفي ان الخوري حنا طنوس هو عميد الفن المسرحي» «في لبنان . ومؤلف زهاء اربعين مسرحية . هو صاحب « العمران » : والبطل» «المجهول . والاعمى البصير : والبطل الاخرس : وشهداء نجران : والنعمان» «الخامس . وداحس وغبراء : ويوسف بك كرم : وامير الارز : والعقل» «اللبناني والدهاء العثماني الخ ...

«هو المؤرخ والشاعر واللاهوتي والمعلم الذي وقف اصغريه اربعين سنة» «على خدمة امته : وتثقيف رجالها وبينهم العديد من عظماء اليوم وابرز» «رجالات الوطن .

«ليس الخوري يوحنا طنوس مجهولاً فاذكروه . وليس نكرة ، فلا تستحوا» «من نسبة روائعه اليه .

«وقليلاً من الذوق يا سادة ...»

اميل ابي نادر

سرقة مسرحية « امير الارز »

اما مسرحية « امير الارز » فقصتها طويلة وسرقتها فضيحة ادبية اذ اقدم احد ادعياء التأليف المسرحي ، نحجم عن ذكر اسمه ، ضناً ببقية من كرامة

نريد رغماً عنه ان نحتفظ له بها : على انتحال هذه المسرحية . فتحللها . وابدل اسمها « بروڤيا الناسك » . تعريباً وتفضيلاً . وتصرف بها على هواه . ومثلها على حلقات في الاذاعة اللبنانية . ثم على مسارح كازينو لبنان ومعهد التقريب وجامعة القديس يوسف . ثم طبعها باسمه محتفظاً لنفسه بجميع الحقوق .

فكان هذا العمل اسوأ صدى في نفوس عارفي الخوري حنا طنوس وقادري فضله : انعكس في ما كتبوه ونشروه بهذا الصدد في مختلف الصحف اللبنانية : كالتلغراف . والنداء . والنهار .

وفي ما يلي نثبت ما ورد في العدد ٦٥٩٦ من صحيفة التلغراف الصادرة بتاريخ ٥/٤/١٩٦٥ تحت عنوان « حول مسرحيتي امير الارز وروڤيا الناسك » .

« الخوري حنا طنوس

« هذا العلامة الذي قضى حياته واعظاً ومعلماً ومرشداً ومؤلفاً . هذا الذي « اغنى المسرح العربي بما انتج من التمثيليات التي اربى عددها على الثلاثين « حتى اعتبره قادرو فضله رائد الادب المسرحي في الشرق العربي . »

« يكاد يعتكب النسيان حرف اسمه : لولا قلة من ذاكري فضله وقادري « نبوغه يرددون قصائده او يشحون اشجال لان يحكى او يكتب عنه . »

« وفي عداد هؤلاء الغيارى على الخوري حنا طنوس الدكتور[1] ... « الذي ابت عليه مروءته ونخوته الا ان يبذل كل ما في طاقته لتكريم هذا « العلامة المنسي حياً وميتاً » .

« ولكن كيف يكرم الخوري حنا طنوس وقد اصبح في ظلمات القبور « رميماً ؟ وكيف يحفظ ذكره ولم يترك على هذه البسيطة عقباً من لحم ودم « يذكر الناس به . انه لم يترك سوى قصائد مبعثرات ومسرحيات في كل « واد هائمات » .

« واجهد الدكتور ... فكره وعصر دماغه . وبعد اسابيع من « اخاض « الفكري وجد الحل الافضل واذا هو يصيح : وقد طفح البشر على وجهه « اوركا اوركا » .

« ذلك انه تذكر ان للخوري حنا طنوس مسرحيات كثيرة لم يطبع منها « الا القليل . وانه ترك تحت طاولة مائدته الادبية من فتات الخبز . وبقايا

---

١) على النقيض اسم منتحل رواية « امير الارز » ومدعي تأليف رواية « روڤيا الناسك » .

«المآكل: ما يشبع النفس جائع الى الزاد الادبي والنفس طامع بالشهرة. نعم» «مثلت مسرحياته مراراً ايام كان الناس «ساذجين» بادب يتذوقون الادب».

«اما اليوم. وقد مات اولئك الكرام. الذين صفقوا لابطال الخوري» «وحنا طنوس يحييها في مسرحياته من دفائن التاريخ. فلا شك في ان الجيل» «الجديد (ظن الدكتور) لا يعرف عن الخوري حنا شيئاً. وعلى كل حال» «ما دامت هذه التآليف المبسلة. غذاء للعث يرعاها وزاداً للفأر يقرضها.» «فلا غضاضة اذا بالعث تشبه وبالفأر اقتدى».

«وراح الدكتور... يفتش عن المسرحية المحظية. عن القصة الرائعة.» «عن الشمايلة التي يشرفها بتبنيه لها. واذا به يجد احدى الليالي في «امير» «الارز» ضالته المنشودة. انها مسرحية تفي بالمرام. تمجد البطولة والاخلاص» «والاقدام. فنام الدكتور ... ليلته تلك. قرير العين مرتاح البال».

«ولكن المسرحية هذه عجوز حيزبون. ولدتها المطبعة عام ١٩٢٨.» «لذلك رأى الدكتور... من الواجب ان يعيد اليها شبابها فيحتنبا بمصل» ««برغمولز» ويختار لها اسماً جديداً. ويلبسها فستاناً قشيباً. ملوناً: ضيقاً.» «قصيراً: لا يجاوز طوله الركبتين».

«وبعد ان وضع التصاميم. واعد العدة اللازمة لتوليد الطفلة: تناول» «كدسة من الورق الابيض. وراح ينسخ رواية «امير الارز». لمؤلفها» «الخوري حنا طنوس: بدقة واجتهاد والعرق يتصبب من جبينه».

«الولادة: والحمد لله: لم تكن عسيرة. فاذا بطفلة مسرحية «امير الارز»» «تطل على الحياة هاشة باشة باسم «رؤيا الناسك» وهي طبق الاصل عن» «والدتها موضوعاً وتصميماً: ومعنى، ولفظاً. ولكنها: بفضل مهارة الطبيب» «المولد رواية عصرية «مودرن». فكما يغير ابناء القرى الذين يهبطون الى المدينة» «اسماءهم السابقة باسماء جديدة «سمباتيك» فيحل اسم جان محل اسم حنا.» «واسم ماري محل اسم مريم: واسم ميشال محل اسم نخله: هكذا فعل» «الدكتور ... فسمى مسرحية «امير الارز» الابنة «رؤيا الناسك» وحل» «واسم الاميرة «عليا» محل «راحيل»، واذا المقدم عبد المنعم يصبح: بقرار» «اداري صادر عن الدكتور... مقدماً على طرابلس بدلاً من جبيل: واستعاض» «ببعض الابيات من القرادي عن قصائد الشعر الفصيح: وطلى وجه الحروسة» «برسوم للفنان «كورولف».

«وهكذا برزت «رؤيا الناسك» المولودة الجديدة منسوخة عن «امير الارز»»

«للخوري حنا طنوس مع فارق بسيط كبير. اذ حل اسم الدكتور ... محل» «اسم الخوري حنا طنوس. وطبعت ١٩٦٢ في المطبعة الخلصية في صيدا بينما» «الرواية الام «امير الارز» هي مطبوعة عام ١٩٢٨ في مطبعة دير سيدة» «المعونات في جبيل.

«وكأنما الدكتور ... وهو الحريص على حقوقه حرصه على حقوق سواه.» «خشي ان يتشبه به امثاله ولصوص الادب: فيسطون (بعد عمر طويل) على» «مسرحيته. فاني على سبيل الاحتراز. واحتياطاً للامر. الا ان يطبع على» «مسرحيته: «ان جميع الحقوق محفوظة للمؤلف».

الموضوع على شقين: شق يتعلق بالناحية الحقوقية ويعني اصحاب الحقوق» في رواية «امير الارز» وشق يتعلق بالناحية الادبية والفكرية وهو يعنينا» ويعني جميع الادباء وكل من عرف الخوري حنا طنوس وقدر ادبه ونبوغه.»

وكنا نتساهل مع الدكتور ... لو كان على الاقل اميناً في النقل ولم» نسخ مسرحية «امير الارز» دون ان يمسخها. اما وقد مسخها وشوه جمالها» ورونقها وروعتها فنجيز لانفسنا ان نسأله: اين الفرق بين المسرحيتين؟» اين الجديد في «رؤيا الناسك» معنى ومبنى؟

فهل للدكتور ... الجرأة لدحض ما عرضناه في هذه العجالة: ونفي» تهمتنا له بالنقل والنسخ والمسخ؟...

«اننا لفي انتظار الجواب. وعلى ضوء جوابه يحكم القراء والادباء فيما» «اذا كان صاحب «رؤيا الناسك» يتحلى بجرأتين او بجرأة واحدة. فان» «احجم عن الرد يكون اقر بما تتهمه به وان اجاب فلنا الى الموضوع عودة.» (انتهى المقال).

طبعاً بقي هذا المقال دون رد او جواب: وبدلاً من ان يستحي صاحب «رؤيا الناسك» او يخجل انى الا ان يتحدى الخوري حنا طنوس في عقر داره فاقدم على تمثيلها للمرة الثالثة مساء السبت في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٦ ولقاء ٢٥ ليرة ثمن بطاقة الدخول، على مسرح القديس يوسف للآباء اليسوعيين بالذات، ذلك المسرح الذي مثلت عليه روايات الخوري حنا طنوس مراراً وتكراراً طوال جيلين كاملين.

وهكذا اثبت صاحب «رؤيا الناسك» انه لا يتحلى بجرأة واحدة بل بجرآت متعددة.

عاش الخوري حتا وعاش كما يعيش ويموت كل اديب اصيل . فالذين يحسبون الانسان كيسهم او بطنهم ظانين ان الحياة اكل وشرب ونوم وتناسل . يعيشون بناء ورخاء . اما الذين يعتبرون الانسان قلباً وعقلاً وروحاً . والحياة رسالة : فهؤلاء شرقيين كانوا ام غربيين . اشتياء حيثما وجدوا . وتعساء تحت اية سماء خلقوا . ولاي شعب كانوا .

قابر الطيب المتنبي : الذي كان يجيزه سيف الدولة مئات الدنانير لقاء قصائده : كان اول من نعى القلم يوم قال :

اف لعيش الكتبه اف له ما اصعبه
تباً لعيش يرتجى من شق تلك القصبه

والياس فياض اما عنى جميع الادباء في رثائه طانيوس عبده اذ قال :

لا تبكه فاليوم بدء حياته ان الاديب حياته بمماته

اما شوقي ، فلولا تعيينه في ديوان الخديوي . لكان مات جوعاً . وحافظ ابرهيم لولا توظيفه في دار الكتب الكبرى لكان قضى حياته في ضيق . وابرهيم اليازجي . وامام العبد امام المفلسين : وولي الدين يكن . وعبدالله البستاني : واديب اسحاق : ونجيب حداد : واسكندر العازار : وطانيوس عبده : والياس فياض : وامين الريحاني : والياس ابو شبكه . وجبران خليل جبران « المقتلة نفسه باثمارها وما من جائع يقطف ويأكل » . ووديع عقل الذي شكا حاله في هذه الابيات :

اعد لي سيف الدولة اليوم مالكاً تجدني في النادي ايا الطيب الثاني
وهات دنانير الرشيد وخذ من القوافي عقوداً من عقيق ومرجان
كليني لهمي يا ثريا فانني ارى الشعر من بلواي في ارض لبنان
ولا تطلبي ديوان شعري فانه بقية ما يبقي لك الزمان الجاني
لعلك يوماً بعد موتي تريته ينيلك من شاريه قيمة اكفاني

وفي قصيدة اخرى يقول :

يرى لي الناس شعرا غالياً واذا عرضته لا ارى للشعر من شار
قد طيب الله انفاسي لانفحهم بها . وما نفحوا كفي بدينار
انا هو العود والعواد اطرب سماعي بايلام اضلاعي واوتاري

وجميل صدقي الزهاوي . ومعروف الرصافي . الذي مات وهو لا يملك سوى الثياب التي يلبس والفراش الذي ينام عليه . ستة من اصحاب الاقلام العربية التي لم تبعد عن اصحابها الآلام . ولم تنقص عنهم شيخ الفاقة والعوز .

اما اعضاء الرابطة القلمية في الولايات المتحدة الاميركية وهم رشيد ايوب . ونذره حداد . ووليم كاتسفليس ووديع باحوط . والياس عطاالله : ونسيب عريضه ومخايل نعيمه واليا ابو ماضي وجبران خليل جبران وعبدالمسيح حداد . فما درت عليهم اقلامهم كما فيهم اليوم .

فرشيد ايوب اضطر الى الدعوة لاكتتاب يمكنه من طبع ديوانه «اغاني الدرويش» اما نسيب عريضه فبقي اكثر من عشرين سنة ينتظر الفرصة التي تسمح له بطبع ديوانه « الارواح الحائرة » ولولا غيرة نفر من اصدقائه لبقي الديوان اوراقا يرعاها العث : وقد لفظ شاعرنا انفاسه والديوان ما يزال قيد الطبع .

ويروي مخايل نعيمه في كتابه «سبعون» ان اعضاء الرابطة القلمية لم يكن بينهم واحد يملك من المال ما يفيض عن حاجته من يوم ليوم او من شهر لشهر ؛ وان بعضهم ما كان يملك اجرة الترامواي . وبرهاناً على ما كان بينهم وبين الدولار من جفاء ، يروي نعيمه ان جبران خليل جبران يوم اعلنت هدنة الحرب الكونية الاولى اجتمع برفاقه : اعضاء الرابطة القلمية ، ليفرح معهم بانتهاء الحرب ويشربوا معاً كأساً من الويسكي . لكن الجيوب كانت فارغة فنتفت لجبران حيلة واخذ لوحة من « الكرتون » ورسم عليها فتاة تحمل علماً فضفاضاً خط عليه هذا البيت :

على انقاض ماضينا بنى مجد آتينا

وعرض جبران الصورة بالمزاد لعلها تأتي بما يرد غطشه وعطش رفاقه ؛ فاذا بين الحضور شاب حمصي يستلذ مجالسة اهل الادب ، يبتاع الصورة بقنينة من الويسكي . وكان تصفيق وكان فرح كبير .

ويروي كذلك مخايل نعيمه عن رشيد ايوب انه كان مرافقاً ذات صباح صديقاً له يتعاطى التجارة . وبلغا باب المخزن فاذا على العتبة شيء ، ما ان رآه التاجر حتى ادار وجهه عنه ، وسد انفه ، واخذه غثيان شديد . فادرك رشيد ايوب ان ذلك الشيء لم يكن غير براز قطة . ولما كان يعرف

مقدار نفور صديقه من تلك القذارة . استعرق في الضحك وقال : ماذا يكون في ممك اذا لم يحملك من هذه القذارة ؟ فاجابه رفيقه . غداء شهي مع ويسكي . وزال وشيء القذارة . فاكل غداءه طيباً وشرب من الويسكي على قدر ما شاء فقال لصاحبه : هذا باب رزق لم يكن ليخطر لي في بال . سبحان مقسم الارزاق .

وبعد قبل الادب العربي وحده لا يطعم خبزاً .

كلا . فالادب الحقيقي لا يطعم خبزاً في بلد من بلدان الله ولا بقل ادباء الغرب تعاسة عن ادباء الشرق . واذا كان هنالك طائفة من الكتاب امثال بلزاشر . وكيبلنغ دوبل . ومكسيم غوركي . وترلستوي . قد جنوا من نفقات اقلامهم الاموال الطائلة . فهنالك سلسلة غير معدودة الحلقات من العباقرة العالميين الذين عاشوا فقراء . وماتوا تعساء .

ان الشاعر المسرحي كورنلي لو لم ينعم عليه لويس الرابع عشر بعض المال من وقت الى اخر . لكان مات جوعاً . ويروى عنه انه كان يملك حذاء واحداً رأى فيه ثقباً فذهب الى اسكاف وخلعه طالباً ترقيعه . ووقف في الطريق ينتظر ان ينتهي الاسكاف من اصلاحه . والناس ينظرون الى كورنلي واقفاً على قدم . ورافعاً الاخرى في الهواء .

والروائي الشهير « هونوريه دي بلزاك » رأته مرة ابنة جاره مرتدياً ثوباً ممزقاً . فراح يعتذر لها ويختلق الحجج فقالت له الفتاة : عندما اطالع يا سيدي كتاباً من كتبك اتظن اني افحص غلافه او أقرأ محتوياته ؟

و « بول فرلين » كان غارقاً في الديون : دائم الافلاس . دعي مرة الى مائدة فسر كثيراً ولكن ثوبه كان مرهوناً . فطاف في جيرانه يستدين منهم ما يستفك به ثوبه . ويقال انه اكل بشراهة . لانها احدى المرات القليلة التي يتناول فيها الطعام بلا حساب . ويأكل ما يريد .

اما « لامارتين » فكان ينتقل من الغنى الى الفقر بسرعة عجيبة . ويروى انه جاءه مرة رجل يطلب منه مساعدة فقلب لامارتين جيوبه وفتش في مكتبه : ولما لم يجد فلساً واحداً يعطيه الرجل : بكى ...

و « الكسندر دوما » الاب : كان فقيراً . و « ريشار فاغنر » الموسيقي الالماني كان غارقاً في الديون حتى اذنيه .

والمصور الهولندي « فنسان فان جوخ » تروي مجلة « المختار » انه لم يمش وراء نعشه : يوم مات : الا سبعة رجال وقد بلغ الذين زاروا متحفه

في نيويورك . ليروا رسومه . مليوناً ونصف مليون شخص . ولم يتجاوز ما كسبه في عمله . طوال حياته كفنان . مائة وتسعة وعشرين ريالاً . وبعد موته بيعت صورة واحدة بمئات الدولارات وبقدر مجموع ما بلغه ثمن صوره بعشرة ملايين دولار .

و « فرنسيس بيكن » الفيلسوف الانكليزي واضع اساس التجربة . ومثال النقضاة . الذي قيل عنه انه اعظم واحكم واعدل انسان بين البشر : سيق مرة الى السجن وفاء لدين عجز عن وفائه .

و « سبينوزا » الفيلسوف الهولندي الشهير . اضطر الى تعليم الاطفال . وصقل العدسات الزجاجية . كسباً لقوته . ويروى ان شخصية كبيرة زارته في احد الايام ولما رأته في ثوب فقر امتعضت منه ووهبته رداء جديداً . فاعتذر « سبينوزا » عن قبول الهدية قائلاً : ان الرجل لا يسمو به رداء جميل .

و « عمانويل كانت » الذي قيل عنه انه كاتب المانيا الاوحد . وان الرجال يظل طفلاً حتى يفهمه . عاش حياة فقر وتعاسة .

و « هربرت سبنسر » اضطر الى التشغل كرسام لخطوط الحديدية . والى التحرير في جريدة « الايكونومست » كسباً لقوته اليومي .

اذا ساقني الموضوع هذا الاستطراد والتحدث عن هؤلاء العباقرة البائسين : فلكي ابرهن ان الخوري حنا طنوس الذي عاش فقيراً . ومات لا يملك ثمن الكفن : كان نصيبه من دنياه نصيب امثاله في النبوغ . والعبقرية . عاش ليتألم ويشقى . وبينما الناس تلهو في جمع المادة فوق المادة . وتكديس المال فوق المال : كان : كامثاله من الادباء الاصيلين : في غمرة من الفقر : ونشوة من اللاوعي : سكران يستطر الحرمان عبقرية وروائع : ويضفر من شقائه على رأسه اكاليل من الخلود لا تذبل .

هذا كان حظه من دنياه : حظ من يعيش في مسابح الروح والعقل والخيال في عالم المادة . انه كطير « الالباتروس »[1] في قصيدة الشاعر الفرنسي « بودلير » خلق ليحلق في الاجواء والاعالي لا ليحط على الارض لان جناحيه الكبيرين يمنعانه من الوقوف على اليابسة .

لم يطبع من آثاره سوى النعمان الخامس والبطريرك حجولا وامير الارز

(١) L'Albatros .

وبطل المجهول . ونشرت مجلة الشرق مسرحيتي « شهداء لبنان » و« العصران ».

وكان قد بشر . قبل وفاته بشهر . بتفصيل بدور النشر وبوزارة التربية الوطنية بعرض شيء مشروعاً لطبع مسرحياته . ويداهم الموت قبل ان يتحقق مشروعه . وكأنما عدم تحقيق هذا المشروع قد خلق في قلبه غصة . فظل المرحوم الخوري حنا طنوس يعودني طيفه في الحلم فيذكرني بملاحقة هذه القضية والسعي لدى المسؤولين لحملهم على طبع مؤلفاته .

وفي ليلة من كانون الثاني من عام ١٩٤٧ عادني الخوري حنا في الحلم وسألني مهمة بعثتها في كتاب وجهته بتاريخ الثاني من كانون الثاني ١٩٤٧ الى فخامة رئيس الجمهورية . وهذا هو نصه :

يا صاحب الفخامة .

لم يولني الحظ شرف مقابلة فخامتكم . فاستبدت القلم عن اللسان رجاءً من فخامتكم ان تعيروني من وقتكم خمس دقائق فقط .

ان الخوري حنا طنوس . يا صاحب الفخامة . ولتم بغنى عن ان اعرفه اليكم . هذا الرجل الامثل . واللبناني اللبناني الذي قضى حياته كل حياته يهذب امة انجبت فخامتكم . ويوجه جيلاً انتم اليوم قادته . مات امسنة الماضية بعد حياة ملأى بالكد والتضحيات . وكنت اعوده في ايامه الاخيرة واذكر انه يستعذب التحدث عنكم . وقد اخبرني في ساعاته الاخيرة عن فخامتكم عهد التلمذة القصص الجميلة والنوادر العذبة . ومما دفعني الى كتابة هذه الاسطر هو هذا الحلم الذي قض مضجعي تلك الليلة . واقلق راحتي . فقد عادني الفقيد في المنام الليلة البارحة وكلفني ان انقل لفخامتكم ما سأقصه عليكم .

حلمت انني نائم تموج بين اهدابي خيالات وصور . واذا بي اشعر في (الحلم) بيد تمتد الى صدري وتهزني ثلاث مرات ، استيقظت على اثرها (في الحلم دائماً) مذعوراً قلقاً . واذا امامي الخوري حنا طنوس كما عرفته في شيخوخته مرتدياً ثوبه الاسود البائخ : الا انه اعمى .

فجلس قربي على السرير ، وخاطبني بصوت اجش ، وعلى محياه مسحة من الكآبة ما رأيتها قط على وجهه حتى في اشد ساعاته واقساها . قال : « جئت اليك لتذهب الى بشاره فخامة رئيس الجمهورية ، تلميذي الحبيب وتذكره باستاذه العجوز . انا شيخ اعمى لا استطيع الوصول اليه .

قل له ان لبنان الذي احببته من كل قلبي . لبنان الذي عشقته فعشق بي ولم يخابل الحب بالحب » .

قال هذا وهو ينبش تعباً . ورأيت العرق يتصبب من جبينه . فمد يده ومسحه ثم وقف واستطرد . « والاستاذ حيدري لا تنس ان تقول له اني منتظر جوابه . قد وعدني بطبع رواياتي وحتى الآن لم يبر بوعده . قل له اني « زعلان » . امن العدل الا استفيد منها لا في شبابي ولا في شيخوختي وعجزي . وهذه الروايات هي اعز ما املك . وهي ثمرة جهودي ومولدات قلبي وخيالي وعقلي . انت قل له اني « زعلان » .

وتفتحت اساريره وجهه الشاحب ثم ازدرف « انا اعرفه واعرف قلبه فاذا علم بزعلي يدبر المسألة وقد عودني على فضله »

وانحنى علي مودعاً . فطوق عنقي قائلاً . « انا متكل عليك . قالت عنا شيخوختي . واطلب منك ان تنشر القصيدة التي نظمتها للشيخ بشاره بمناسبة تسلمه كرسي الرئاسة . لا تنس لا تنس » .

فقبلت يده وهممت بالوقوف لارافقه واذا بقشعريرة تهزني فاستيقظت . استيقظت فعلاً هذه المرة : ورأيتني وحدي في الغرفة : قابضاً على عمود السرير : وفي اذني اذني بقية كلمات تتلوى . وشبه همس يتغلغل في مسمعي . وصدى نبرات تذوب .

هذا يا فخامة الرئيس حلمي الذي رأيته : سردته عليكم لانه قد اثر فيّ كثيراً . واحببت ان انقل اليكم ما بثني فقيدنا الكريم . وتلبية لرغبته سانشر عاجلاً قصيدته في فخامتكم التي مطلعها :

بشرى البشائر في اصقاع لبنان دقت تنادي بأسعاد واحسان

هذا واعذروني اذا ازعجتكم وثقوا يا فخامة الرئيس بصادق احترامي وفائق اخلاصي .

بيروت في ٢ / ١ / ١٩٤٧

اميل ابي نادر

فظل هذا الكتاب دون جواب ولا نتيجة .

وفي الثالث والعشرين من شهر آب عام ١٩٤٧ اعدت محاولة السعي لطبع رواياته فوجهت كتاباً الى وزير المعارف انذاك الاستاذ حميد فرنجيه اقتطف منه ما يلي :

ان النابغة اللبناني العلامة الخوري حنا طنوس توفي السنة الماضية. وقد خلف من الروايات المسرحية ما يربي على الاربعين. وهي كلها من خيرة الروايات من حيث المعنى والمبنى؛ ومن حيث العاطفة اللبنانية الخالصة الصادقة.

ولا كان يخشى ان تضيع هذه الروايات. فيفقد لبنان ثروة ادبية تذكر. ويرثنا مسرحياً قيماً. جئت بكتابي هذا اعرض على وزارة المعارف. والتهم على رأسها من الذين يقدرون منتجات العقل ومولدات الخيال. ان تشتري هذه الروايات تطبعها او حفظها كمخطوطات.

فني هذه الايام. ووزارة المعارف تبذل جهداً يذكر فيشكر. تريع لمشتري الكتاني. فتعقد المؤتمرات. وتبدل الالوف من الليرات في هذا السبيل. نلفت نظرها الى هذه القضية. ولنا امل عظيم بانكم يا معالي الوزير ستولون هذه الروايات اهتمامكم حرصاً عليها وعلى التراث اللبناني.

وتحضرني في هذه المناسبة ابيات قالها المرحوم الخوري حنا طنوس فيكم:

سألوا النزاهة والنجابة والحجى ... من تصطفيه لبلاد عبدا
فاجابت العلياء هبوا وانتقوا ... شيماً غدا بين الانام فريدا
طافوا البلاد فصادفوا في امحدن ... رجل الجهاد المستميت حميدا

وقولوا يا معالي الوزير: باخلاصي وتجردي واقبلوا فائق الاحترام.

١٩٤٧/٨/٢٣

اميل ابي نادر

وبقي هذا الكتاب ايضاً دون جواب ولا نتيجة.

وعلى الرغم من شعوري بانني اصرخ في واد؛ وانفخ في رماد؛ لم أيأس ولم تثنِ عزيمتي عن ملاحقة المسؤولين؛ لاحلهم على المساهمة في طبع روايات الخوري حنا طنوس؛ واحياء ذكره. وفي الخامس من ايار عام ١٩٥٠ وجهت كتاباً مفتوحاً الى وزير التربية الوطنية الامير رئيف ابي اللمع نشر في صحيفة «العمل» في العدد رقم ١٢٥٨ اقتطف منه ما يلي:

سيدي الوزير .

في الساعة السادسة من مساء اول امس الاربعاء . مثلت في قاعة جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين رواية « شهداء نجران » مؤلفها العلامة الخوري حنا طنوس .

رأيناك مترئساً الحفلة . وتفرسنا في ملامحك فقرأنا فيها امارات الاعجاب والتأثر . وشهدناك تصفق . تصفق من كل قلبك . لمشاهدها الرائعة .

ولكن الاعجاب يا سيدي الوزير . لا يكفي والتصفيق لا يجدي .

رأيناك امام الروكسي تخطب في الطلاب . وسمعناك في المكتبة الوطنية تحدث عن مشاريعك التربوية والتثقيفية . واصغينا اليك تلقي كلمتك في حفلة احياء ذكرى المرحوم الخوري يوسف الحداد . فالفيناك في هذه المراقف سواها . اديباً اريباً تغار على الادب والأدباء . وتود ان تساعدهم جهد المستطاع .

فتصاحب رواية « شهداء نجران » هو من اولى الناس باهتمامك ومساعدتك . ومثلك من هو بغنى عن ان نقول له من هو الخوري حنا طنوس .

هو احد نوابغنا المجهولين . نذر حياته لتعليم النشء . وتثقيفه . فلم يبد من النشء الذي علم ، ما يشير الى انه وفّى له . حافظ ذكره .

واحب لبنانه حتى العبادة ، ولا اغالي ، وتغنى بجماله وروائعه في منظومه ومنثوره ، فاذا لبنانه لا يكرمه في حياته . ويتجاهله ويتناساه بعد مماته ، في الوقت الذي يكرم ويمجد — عفوك يا قلم — اصحاب الاقلام المرخوصة . والمتطفلين على الادب ، من قارعي الطبول ، وضاربي الصنوج ، وساكبي العطور .

رجل فذ ، خدم دينه ودنياه ، وضحى وجاهد بتجرد واي تجرد . واخلاص لم يعرف حداً ، فادى رسالته على اكمل وجه .

خمسين سنة قضى بين التدريس والتأليف ، معلماً واعظاً خطيباً . ينفح لبنانه والمكتبة العربية ، بالرائع من القصائد ، والخالد الخالد من الروايات المسرحية .

عرفته وشمسه تدلف نحو المغيب ، فتعرفت فيه الى القلب الذي لم يشب . والهمة التي لم تشخ .

قال لي قبل وفاته بيومين ، وهو يتقلب على فراش الموت ويحمل على كاهليه وطء الثمانين ، وفي صدره ثقل قلبه الكبير ، « لم استفد من كل حياتي الا التصفيق » .

سيدي الوزير

ماذا عملت وتعمل وزارة التربية الوطنية لتشجيع الادب والادباء؟ ان تأليف الخوري حنا طنوس . ولا سيما مسرحياته منها . يأكلها العث . ويرتع بها العفن . وكتابي هذا ليس الاول من نوعه — ولا الاخير ان شاء الله وعنت خاطره — فقد سبق لي ان رفعت بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٤٧ كتاباً بهذا القصد الى فخامة رئيس الجمهورية . وبتاريخ ٢٣ آب ١٩٤٧ كتاباً آخر الى وزير التربية الوطنية آنذاك . الاستاذ حميد فرنجيه . ولم ازل انتظر النتائج .

فيا لكم . وانتم على رأس وزارة التربية الوطنية . ان تسعوا بكرامة هذه العلامة . ولو بعد مماته . بطبعكم مسرحياته أو بعضها . وعلاق حبه على حد شوارع العاصمة التي حنده بلبنا وربى شبيبتها ؟

فان فعلتم اديتم له . وللشرف الفني . وللمكتبة العربية المفتقرة الى مسرحيات . خدمات تذكر فتشكر .

ولا تعذروني . يا سيدي الوزير . على سذاجتي وحسن نيتي .

(العمل عدد ١٢٥٨ ، في ٥ / ٥ / ١٩٥٠)

اميل ابي نادر

وهذا الكتاب ايضاً بقي دون جواب ولا نتيجة . ففهمت عندئذ اني ساذج حسن النية . واستيقظت من وهمي . وعدت الى رشدي ؛ وادركت ان كل محاولاتي ستبوء بالفشل . فتوقفت عن كل نشاط وسعي في هذا السبيل .

ليعذرني القارئ اذا استرسلت في هذه التفاصيل التي دفعني الى بسطها رغبتي في اعطاء القارئ فكرة عما لحق الخوري حنا طنوس من اجحاف ؛ في حياته وبعد مماته . واذا كان اطلق على نفسه لقاب « حنا دون فلس ولا طرس » فانه ليحق ان يلزمه ايضا لقب « المهمل او المنسي في حياته وبعد مماته » .

شاعرية الخوري حنا طنوس

تراه خطيباً . ام مؤلفاً مسرحياً : ام كاهناً .

لست ادري . فقد يكون الاول وقد يكون الثاني . وقد يكون الثالث . وقد يكون الثلاثة معاً : انما الذي لا شك فيه . هو انه شاعر قبل كل شيء . شاعر في كل الاحوال وفي كل من كان .

الخوري حنا طنوس . في شخصياته العديدة التي تلاحمت فيه . وتلاصقت . وتلاقحت فتكاملت : كانت شخصية الشاعر طاغية على كل سائر الشخصيات . كان شاعراً وهو يخطب . شاعراً في مختلف تصرفاته وحياته اليومية . وقد تميز انتاجه الشعري بصبغة لبنانية فريدة . لقد تغلغلت في احاسيسه ومشاعره تلك الروحانية اللبنانية حتى تملكته . فغدا شاعرنا « نبضة في قلب لبنان . ودمعة في عينيه . وابتسامة على شفتيه » .

ولبنانه جنة تنساب فيها الانهار . على جداجد من مرجان . لبنانه ينابيع وازهار :

لبنان يا جنة الفردوس لبنان ... يا روضة بسناها الكون يزدان
ومن رأوا انه الفردوس ما غلطوا ... كل البدائع فيه وهو بستان
بستان حسن به الانهار جارية ... ويملأه النشيد والحصباء مرجان
فيه الينابيع ما احلى عذوبتها ... فيها من الزهر اشكال والوان
وخمره قد غدا بين الورى مثلاً ... وقول تراثنا للناس برهان
تنمو الرجال اسوداً في عرائنه ... وترضع اليأس ابطال وشجعان
اذ قيل اي بلاد الله قد سبقت ... في الحسن قلنا على الاطلاق لبنان

والارزة كان لها في شعره النصيب الوافر . فهي غرسة الرب : تاج الجنة .

ارزتي يا ما احيلى ارزتي ... غرسة الرب وتاج الجنة
غابة في منحنى مكملة ... طوق حسن زان جيد الجنة
خلته الارزة قد قلمها ... دم قوم سال للحرية
هذه الارزة قد كرسها ... شرق لبنان بسيف المردة
تحتها كم حر غاز طامع ... حافي الرأس ذليل الجبهة

يا شباب لارز كونوا جنود اسداً تحمي عرين الامة
وارفعوا رايتكم منتصرة في ذرى المجد بعزم وقوة
تحت الارزة في آذانكم عظمتي انتم وانتم قوتي

وشاعرنا احب ارزه حباً دفعه الى عبادتها بعد ربه . وتمنى ان يحك كفنه من اوراقها وان يدفن في ظلها كي تتغذى من رفاته :

يعبد ربي ارزي معبودتي . ارزي عزي حياتي بهجتي
ردد روحي لأت عن ظلي تحت ظل الارز وروا حقتي
ومن الاوراق حيكوا كفني كي تسلى وحشتي في وحدتي
فعسى من بعد موتي وهنا من رفاتي تتغذى ارزتي

ذلك لان الخوري حنا عاصي يعتقد انه يبقى حياً اذا دفن في ظلال الارزة . فان حطبها بيده . وهو في الثلاثين من العمر يستعد لشبابه . ولد مات ودفن في ظلها . فسيعظه نسيبه . وقد اتى الا ان يرجع الى الشباب لبناني . وهو في عقده التاسع وقد انوت السنون عوده . هذه الرصية :

يهيب بكم ارز الخلود : انا لكم لكم وحدكم من دون كل الاجانب
الا فاحفظوا عهدي تغير جدودكم لتبعد عني كل وثبة واثب
الا واجمعوا حولي الشباب كتائباً وصونوا تراثي احرّ من كل غاصب
الا واجعلوا لبنان في الشرق جنة تتوق لمرآها ملوك الاعاريب
لتخفق في الشرق القصي بنودها وتخفر لعلياها ملوك المغارب
الا وليكن لبنان رب قلوبكم وسرمى اماليكم ومبدا المذاهب
ايا ارزتي تفديك روحي من الاذى وتفدي بنيك من مقيم وغائب
الا حلوني راية الارز لحظة تعيدوا بها عهد الشباب لشائب
وان مت يوماً فادفنوني بظلها يهنئ رمسي كل آت وذاهب
لان رفاتي تستلذ نسيمها وابعث ان مرّ النسيم بجانبي

ولبنان شاعرنا: وطن ازلي سرمدي . صانه الجدود ، وبذلوا في سبيله المهج والارواح ، وجعلوه باتحادهم وتعاضدهم معقلاً للحرية والكرامة ، وملجأ للمضطهدين ، ولكل من قسا عليهم دهرهم او جار . وهو لا يخاف عليه شراً ، ما دام الاتحاد يقتفون خطى الاجداد ، وما دام هناك اله يكلأه بعنايته ، ومخلصون يرعونه ويحافظون عليه .

اجدادنا جعلوا لبنانا جبلاً ... حراً اليه يوافي كل فرقان
خطت على ارزه العالي دماؤهم ... لبنان ارث نكم يا آهل لبنان
ان لم تصونوا ببذل الروح ارزتكم ... سمعتم لعن اجداث واكفان
جدودنا ثمن استقلالنا سفكوا ... دماً ذكياً رفيع القدر والشان
سيل الدما في ربى لبنان البسه ... كالارجوان بلون الاحمر القاني
يا خائفين على لبنان في غده ... تلك المخاوف من وسواس شيطان
دعوا الوساوس بل كونوا على ثقة ... رئيسكم في صميم القلب لبناني
يا ارز لبنان لا تخشَ الردى ابداً ... عليك تسهر في الحدثان عينان
عين الرئيس وعين الله تكلؤها ... لدى الشدائد من كيد وعدوان

ولكن من يدري ؟ فقد تبذر في حقله بذور الشر والفتنة . وقد تعصف ريح لتزعزع رواسيه . لكن شاعرنا لا يخاف عليه شراً . ما دام الله وطد اركانه . ورفع قممه حتى السحاب . وما دام وراء لبنان اساد وشجعان .

اما تسود كما قد كنت من قدم ... اما اموت فندى واقلب جزلان
لقد دحاك الله العرش مرتفعاً ... حتى السحاب : فلا يعروك خذلان
ان رام خضضك اقوام فقل لهم : ... وراء لبنان اساد وشجعان

على ان هذا الاستقلال : ادرك الخوري حنا طنوس . انه لن يبقى ويستمر الا بوحدة بنيه جميع بنيه ، واتفاق طوائفه جميع طوائفه . هذا الكاهن الورع الملقان في اللاهوت « علمن » الايمان و « انسن » الدين . فتدين ولم يتمذهب : وادرك ان الدين الحقيقي ليس تمتمات على شفاه . بقدر ما هو شعور في قلب واحساس في ضمير ووجدان . فكان دائماً داعية الى الالفة والمحبة والتعاضد والتآخي : لان الاديان الحقيقية في رأيه . تجمع ولا تفرق .

اجدادنا باتحاد الرأي قد فتحوا ... ممالك الارض من قطب الى قطب
وانتم ما فعلتم في تفرقكم ؟ ... هل انزل الله ذا التفريق في الكتب؟
اوصى المسيح بحب الناس قاطبة ... حتى نكون جميعاً اخوة لاب
وسن احمد دستوراً لامته ... حتى توحد في مجموعها العصبي
انجيلكم يا نصارى في كنائسكم ... وفي الجوامع قرآن لتنب
والدين رابطة ما الدين تفرقة ... دين يفرق مبني على الكذب

هذا هو لبنان كما اشتهى الخوري حنا طنوس ان يكون. هذا هو لبنان الذي احبه وما انفك. عنوان حياته. يخدمه باللسان والجنان. وغمض عينيه تموج بين جفنيه صور عنه والوان. مات وهو يردد هذه الابيات يخاطب بها وطنه:

لقد عشقتك يا لبنان في صغري ... وزاد حبك في قلبي مع الزمن
فكنت عندي عزيزاً لا يعادله ... غير ما يقتني من فاخر الثمن
ولا تزال بنار الحب مستعراً ... اني احبك حتى داخل الكفن
وان مت فاحفروا من غرتي جسدي ... ولو عظاماً تعرت من ثرى البدن
وحركوا شفاهكم مبتسمة ... هيموا نفاثكم في السر والعلن

وهذا احب الخوري حنا طنوس لبنان. فلانه وطن الحرية. ولعل بعض مميزات شعره وخصائصه. تلك النزعة الى الحرية والاستقلال. ولقد كان في حياته متحرراً من كل القيود. من قيود المادة التي احتقرها. من قيود المال الذي رفسه برجله. ولم يجمع منه في حياته ما يمكنه من شراء نفير. فعاش في عالم الروح والجمال زاهداً في الدنيا ومغرياتها. معتزلاً زخارف الحياة ومباهجها. واذا كانت العزلة داء او دواء او غذاء. كما قال فيلسوف الشركة امين الريحاني. فقد كانت العزلة للخوري حنا طنوس الغذاء كل الغذاء. فهاكه يخاطب العصفور رمز الحرية:

عصفور السماء خلقت حراً ... تحلق في الفضاء مدى السنينا
فما اشهى الحياة اذا استقلت ... واشقاها اذا ما قيدونا
وما ادنى الانام وهم عبيد ... واعلانا اذا ما حرروا
براك الله احراراً جميعاً ... فيا قوم الطغاة ظلمتمونا
برا الاسماك تسبح في بحار ... وفي الافلاك ، رهطاً سابحينا
نجوماً ساطعات طالعات ... على الدنيا يرحن ويغتدينا
تطوف الشمس في الافلاك دهراً ... تحيينا صباحاً ما حيينا
تغني الطير في الاسحار لحناً ... بتغريد يلذ السامعينا
فكل في السما والارض حر ... سوى الانسان عبد السائدينا

هذا الانسان، ليعيش حراً وينعم ببهجة الحرية، عليه ان يحرر نفسه من شهواته على مختلف اشكالها والوانها. فبقدر ما يتعلق المرء بالخيرات الترابية ويعشق دنياه تنحط انسانيته ويسفل، وبقدر ما يترفع عن جاذبية

المادة . يرتفع ويسمو . وقد اوحى البدر لخوري حنا طنوس في هذا الموضوع . قصيدة رائعة . جمع فيها شاعرنا بجمال الوصف الى متانة السبك وجزالة اللفظ الى سلاسة التعبير وروعة الصور والتشابيه .

غلام غلام يا ملك الليالي ... ابيت اليوم ان تسبي العيونا
فكم لك طلعة بين الدياجي ... تنير الغير تحجب الناظرينا
فدتك النور تبعث مضيئاً ... لبات الليل مكتئباً حزينا
فانك لا تضيء فدتك نفسي ... تعزي القلب اذ تنئي الشجونا
فهل وضعت لك الدنيا نيرداً ؟ ... وهل شادت لك العليا حجونا ؟
تمثل عمرنا في كل طور ... فتكبر ناشئاً كالاصغرينا
وتهرم ثم تفنى في محاق ... كذاك المرء تفنيه السنونا
كانك عاشق اذ انت بدر ... وما اشقى حياة العاشقينا
اذا غابت غزالته بمغرب ... بدا في الشرق مصفرًا حزينا
ربيب بائر غادته عيونا ... لجرم الليل . ما ابهى العيونا
وينفث من تليفه زفيرا ... نسيماً . او انيناً : او حنينا
وعند الوصل بعد الجد يمسي ... هلال الشك يوشك ان يبينا
كذا الدنيا فراق والتقاء ... وهجر بعد وصل المغرمينا
اذا عشق الفتى دنياه يشقى ... ويضعف نوره حيناً فحينا
ويسعد ان تناءى المرء عنها ... ويعظم فضله في العالمينا

هذه لمحة خاطفة عن شاعرية الخوري حنا طنوس . ولو احببنا الاسترسال لاتسع لنا المجال لاملاء صفحات وصفحات . لكننا شئنا . في ما بسطنا وفي الاشعار التي بها استشهدنا . ان نعطي فكرة عن وطنية الخوري حنا طنوس من خلال شعره وعن رسالته الانسانية والاجتماعية والروحية . انه كان معلم اخلاق وفضائل . وصناجة اللبنانيين في ميدان الوطنية . وداعية الى الثقة ومحبة وتفاهم .

مؤلف المسرحي

هذا صفحات مسارح بيروت في الربع الاول من القرن العشرين لابطال الخوري حنا طنوس . يشهد بخصب الشعر الانساني في المعرض . والشرائح شعبية . يستثيرون العواطف . ويشعرون الجمهور . في فترة من الزمن . ان الشعوب انسانية حتى الثدي والمنصب والاستبداد . »

« ويحدو الخوري حنا عن اصطلاح نفسه . وتصرف بدقة . فلا يسوغه سير التاريخ . ولا تصوير البيئة . ولا خصب الخيال . ولا بحث الشعور . كي لا تفوته فجاءة الخاتمة . ولا سرعة الخبر . ولا اصول التسعة المسرحية » .

فؤاد افرام البستاني

كان الخوري حنا طنوس شاعراً وخطيباً ومؤرخاً وادیباً ولاهوتياً . لكن شهرته . كمؤلف مسرحي . طغت على ما عداها . وجعلته اشهر رواد هذا الفن . واشرقهم وجهاً . حتى اعتبره بعض عارفيه رائداً للادب المسرحي في الشرق .

فهل يفهم من ذلك انه اول من ادخل الفن المسرحي الى الادب العربي واول من الف تمثيليات ؟

كلا . لم يكن الخوري حنا طنوس السباق في التأليف المسرحي . انما كان اخصب من انتج للمسرح العربي تمثيليات . فيها من عناصر الادب ومقوماته : ما قد لا يتوافر في نتاج الكثيرين ممن سبقوه في هذا المضمار .

ولا بد هنا من القاء نظرة خاطفة على تاريخ المسرح العربي فناً وادباً قبل الخوري حنا طنوس .

مارون النقاش

لقد اجمع الباحثون في الاداب العربية على ان الفن المسرحي ابصر النور على يد اللبناني مارون النقاش الذي ولد في صيدا يوم الاحد في التاسع من شباط ١٨١٧ ، ومات في طرسوس في اواخر ايار ١٨٥٥ .

فعلى اثر عودته من سفرة الى ايطاليا ، حيث حضر فيها تمثيل روايات على مسارحها اعجبته ، خطر على باله نقل هذا الفن الى العربية . فضم اليه بعض اصدقائه في بيروت وشرع يعلمهم فن التمثيل . وألف عام ١٨٤٧ رواية « البخيل »[1] مثلت في بيته ، بحضور فضلاء المدينة واعيانها ووجهائها. وكان نجاح هذه الرواية وثناء من حضر تمثيلها ، حافزاً لمارون النقاش على ان يؤلف عام ١٨٤٩ رواية ثانية اسمها « ابو الحسن المغفل او هارون الرشيد » جرى تمثيلها في بيته ايضاً امام جمهور كبير بينهم والي سوريا ، وبعض الوزراء ورجال الدولة . فكالوا له من عبارات الاطراء والتشجيع ، ما حمله على تأسيس مسرح خاص بالتمثيل بموجب فرمان سلطاني ، جانب منزله الذي تحول بعد موته الى كنيسة[2] عملاً بوصيته . وعلى هذا المسرح مثلت عام ١٨٥١ رواية اجتماعية ثالثة « السليط الحسود » . فكانت بادرة مارون النقاش هذه فاتحة نهضة مسرحية ابتدأت في لبنان ثم امتدت الى مصر فسائر الاقطار العربية .

نقولا النقاش[3]

وكان نقولا النقاش اول تلاميذ شقيقه مارون واول من تابع رسالته . فمن آثاره مسرحية « الشيخ الجاهل » الفها عام ١٨٤٩ ومسرحية « ربيعة ابن زيد المكدم » وضعها عام ١٨٥٢ .

سليم خليل النقاش

ثم اتى سليم خليل النقاش ابن شقيق مارون . فالف فرقة للتمثيل في بيروت ، وحمل شعلة النهضة المسرحية الى الاسكندرية عام ١٨٧٦ ، حيث كانت مصر ، التي تنعم بالحرية في ظل الاستقلال الذاتي عن الحكم التركي ، قد فتحت نوافذها لتيارات الحضارة الانسانية بعد ان اصبح مناخها السياسي مؤاتياً لذلك . فراح سليم الذي كان قد الف فرقة للتمثيل مؤلفة من اثني عشر ممثلاً واربع ممثلات يقدم روايات بعضها مترجم عن الفرنسية مثل « هوراس »[4] و« متريدات »[5] وبعضها عن الايطالية مثل

١) هي مزيج من الفصحى والعامية وغير مسرحية « البخيل » لمؤلف الفرنسي «موليار».
٢) كنيسة السائحة – شارع غورو في عطة الجميزة .
٣) عاش من ١٨٢٥ الى ١٨٩٤ .
٤) لكورناي (١٦٤٠) .
٥) لراسين (١٦٧٣) .

« عايدة » وسواها من الروايات الشرقية التي اقتبسها هو . الا ان سليم النقاش عندما لم تلق فرقته النجاح المرجو تخلى عنها وراح يعمل في الصحافة[1] تاركاً رئاستها الى احد اعضاء الفرقة يوسف خياط .

يوسف خياط

بعد اقامته في الاسكندرية زحاً من الزمن مثل خلاله على مسرح « زيزينيا » بضع تمثيليات بينها « صنع الجميل » و « الاخوين المتحاربين »[2] انتقل بفرقته الى القاهرة عام ١٨٧٩ حيث مثل في دار الاوبرا مسرحية « المظلوم » بحضور الخديوي اسماعيل الذي ظن في الرواية لدى تمثيلها نقداً لاساليب الحكم وقتذاك . فغضب على الفرقة وامر بطردها من مصر . وانزوت هذه الفرقة وراحت تتابع نشاطها التمثيلي في شبه ستر وخفاء .

احمد ابو خليل القباني الدمشقي

حوالى عام ١٨٦٥ ظهر في سوريا احمد ابو خليل القباني الدمشقي الذي كان له في سوريا فضل مارون النقاش في لبنان . فالف ومثل « ناكر الجميل » ثم « وضاح » ثم « عايدة » لسليم النقاش . ثم رواية « ابي الحسن المغفل او هارون الرشيد » لمارون النقاش . الا ان الرجعيين في دمشق من علمائيين ورجال دين ، اثر حضورهم تمثيلية « ابي الحسن المغفل » ، هاجوا وماجوا محتجين على ظهور هارون الرشيد على المسرح على شكل « ابي الحسن المغفل » . ورفعوا شكواهم الى الحكومة العثمانية في الاستانة : فاصدرت امراً الى والي الشام حمدي باشا لمنع ابي خليل القباني من التمثيل واغلاق مسرحه .

عندئذ لم يجد بداً من النزوح عن سوريا . فانتقل عام ١٨٨٤ الى الاسكندرية ، مستأنفاً نشاطه المسرحي . فقدم في قهوة « الدانوب » ومسرح « زيزينيا » عدة مسرحيات من تأليفه : تجمع بين الحوار والغناء والرقص والموسيقى ، امثال : انيس الجليس ، نفح الربى ، عفة المحبين ، عنتر ، ناكر الجميل ، الامير محمود وزهر الرياض ، الشيخ وضاح ومصباح قوت الارواح .

---

١) كتب في الخردة والتجارة والمصر الجديد .
٢) لراسين « تيبايد » (١٦٦٤) .

ومن ثم انتقل الى القاهرة ، ومنها راح يتنقل في مختلف المدن والاقاليم المصرية .

وكما حدث في فرقة سليم النقاش التي انبثقت عنها فرقة يوسف خياط حدث في فرقة القباني اذ الف احد افرادها اسكندر فرح فرقة خاصة اسماها « جوق مصر العربي » . وفي جانبها ظهرت فرقة اخرى مثل فرقة « سليمان القرداحي » و « مسرح رومانو » . قامت تمثل مسرحيات بينها ما هو معرب مثل « استير » لراسين و « تلماك » لفنلون ؛ وبينها ما هو موضوع مثل « هارون الرشيد » .

يعقوب روفائيل صنوع

وعام ١٨٧٠ ظهر في مصر يعقوب صنوع اليهودي المصري الشهير بـ « ابي نضارة » وقد لقبه الخديوي اسماعيل « موليير مصر » . كان يعقوب احد افراد فرقة فرنسية مؤلفة من موسيقيين ومطربين وممثلين تقوم بتمثيل هزليات وملاه وغنائيات في مقهى كبير في « الازبكية » لتسلية الجاليات الاوروبية في القاهرة . فاستهواه هذا الفن واوحى اليه انشاء مسرح عربي . وبعد ان اكب على درس الكتاب المسرحيين الاوروبيين امثال كولدوني[1] Goldoni وموليار[2] Molière و « شريدان »[3] Sheridan ، الف فرقة لتمثيل ست فيمن ست فتاتين رائعتي الجمال : كان لظهورهما على المسرح صدى مستحب لدى الجماهير .

وقد الف يعقوب صنوع مثل اثنتين وثلاثين مسرحية بينها شندور مصر : غزوة رأس تورة زوجة الاب : زبيدة : البورصة ، البربري : الصداقة ، الحشاشون ، الضرتان ، أنسة على الموضة : موليير مصر وما يقاسيه ، الوطن والحرية ؛ وله بالايطالية « الزوج الخائن » و « فاطمة » . وبالفرنسية « السلاسل المحطمة » .

وكانت مسرحياته تلقى نجاحاً كبيراً ، وتقترن باعجاب حاضريها واستحسانهم . ولكن ابا نضارة لم يكن اوفر حظاً من يوسف خياط واحمد ابي خليل القباني . فاثر تمثيل « الوطن والحرية » التي رأى فيها الخديوي

---

١) مؤلف مسرحي ايطالي (١٧٠٧-١٧٩٣) .
٢) مؤلف مسرحي فرنسي (١٦٢٢-١٦٧٣) .
٣) كاتب وسياسي انكليزي (١٧٥١-١٨١٦) .

اسماعيل تعريضاً بحكمه . غضب عليه وامر باغلاق مسرحه. كذا غضب في السبق على يوسف خياط عقب تمثيل مسرحية « الظلوم » . وكذا غضبت الاستانة على احمد ابو خليل القباني في دمشق . بعد تمثيله مسرحية « اتي الحسن المغفل »[1] . وغلقت مسرحه .

عندئذ رحل « ابو نضارة » يتمهن الصحافة و يزاول نشاطه السياسي . لي ذ ضاق به صدر الخديوي . فامر باخراجه من مصر . فغادرها الى باريس حيث توفي عام ١٩١٢ .

سلامه حجازي

بعد « ابي نضارة » ظهر الشيخ « سلامه حجازي » الذي استقل عن فرقتي اسكندر فرح وسليمان قرداحي فالف عام ١٩٠٥ فرقة غنائية قدم بواسطتها مسرحيات غنائية في مصر وسوريا ولبنان . لكن الشيخ سلامه . الذي لم يكن ضليعاً في هذا الفن . قام بتمثيل روايات لا قيمة لبعضها من الوجهة الفنية امثال « ابن الشعب » و « تسبا » و « اليتيمتين » و « الحرم الخفي » و « شهداء الغرام » و « تلماك » و « ضحية الغواية » و « هملت » . الا ان الشيخ سلامه ، نظراً لسخائه على اخراج رواياته . واتقانه المناظر والملابس ، ونظراً لصوته الشجي الذي كان يجلب الناس الى حضور رواياته . خطا بالفن المسرحي خطوات جبارة ، ومهد الطريق للفن المسرحي الاصيل . فكان بذلك صلة بين التمثيل القديم والجديد .

جورج ابيض

كل جهود الفرق المسرحية التي اشرنا اليها سابقاً لم تكن الا مقدمة ، او توطئة ، او تمهيداً لظهور المسرح العربي الفني ، المستقل باصوله ووسائله الخاصة . ولم يظهر هذا المسرح الا بفضل جورج ابيض اللبناني الذي ولد في بيروت عام ١٨٨٠ وهاجر الى مصر عام ١٨٨٩ حيث كلأه الخديوي عباس برعايته وعطفه ، فسافر عام ١٩٠٤ الى باريس حيث تلقن فن التمثيل على كبار اساتذته واشهر ادبائه ، امثال الممثل الكبير « سيلفان Silvain »[2] .

---

١) هارون النقاش .
٢) من اشهر ممثلي « الكوميدي الفرنسية » (١٨٥١—١٩٣٠) .

وثر عودته من باريس عام ١٩١٢ ألف . بناء على تشجيع وزير المعارف سعد زغلول . فرقة للتمثيل اختار افرادها من الذين كانوا يشتغلون بمختلف الفرق المسرحية امثال فرق القرداحي واسكندر فرح والشيخ سلامه حجازي . ومثل مسرحيات « جريح بيروت » لحافظ ابراهيم . و« اوديب ملكا » لسوفوكل[1] عربها فرح انطون و « عطيل » لشكسبير[2] عربها خليل مطران . وبعض هزليات لموليار عربها عثمان جلال مثل « ترتوف » و « مدرسة الازواج » و « مدرسة النساء » و « النساء العالمات » .

ثم انفق جورج ابيض والشيخ سلامه حجازي فالفا معاً عام ١٩١٤ فرقة مثلت روايتي « صلاح الدين الايوبي » و « عايدة » .

وقبيل الحرب العالمية الاولى بدأ الشعب يتذوق الفن التمثيلي . وينظر اليه نظرة جديدة . فاتفق عبد الرحمن رشدي وسليمان نجيب ومحمد ابراهيم ومحمد تيمور واحمد رامي ومصطفى غزلان على تأليف جمعية « انتصار التمثيل » واخراج مسرحيات .

وخلال تلك الحرب أنشأ بعض الرأسماليين في مصر « شركة ترقية التمثيل » قدمت عدة روايات كان من انجحها « الراهب المتنكر » لكاتب متنكر : عرف فيما بعد : انه امين الخولي احد طلاب القضاء الشرعي في مصر .

وعام ١٩١٦ اطل على المسرح نجيب الريحاني فابتكر في قهوة «روزاني» بمصر شخصية « كشكش بك » وظل يحترف الفن المسرحي مؤلفاً وممثلاً الى ان مات ١٩٤٩ .

ان فرقة عبد الرحمن رشدي ورفاقه لم تعمر طويلاً : «واما جورج ابيض فلم يثبت بفرقته ؛ واذا يوسف وهبه يظهر على اطلال الفرقتين ويتخذ من مسرح « رمسيس » ميداناً له .

النشاط المسرحي في لبنان

بعد هذا العرض السريع الذي لا غنى عنه للنشاط المسرحي تأليفاً وفناً في سوريا ومصر ؛ هل يفهم ان لبنان كان خلال كل هذه السنوات في حالة ركود وجمود؟ كلا . فشعلة هذه النهضة المسرحية التي اولعها في

---

١) سوفوكل ، احد اكبر شعراء اليونان (٤٩٦–٤٠٥) قبل المسيح . ألف مأساة « اوديب الملك » عام ٤٤١ ق. م.

٢) شكسبير ١٥٦٤–١٦١٦ . ألف « عطيل » عام ١٦٠٤

بيروت مارون النقاش ونقلت وسطعت في مصر ، لم يخب نورها في لبنان ، بل ازداد على مر الايام تألقاً وشعاعاً . وهذا المسرحيات تمثل بكثرة في مختلف المعاهد والمدارس .

١) مدرسة الحكمة

« آدم وحواء » (١٨٦٨) لخوري فيلمون الكاتب . « يوسف حسن بن يعقوب » (١٨٦٩) لخوري اسطفان الشرتوني . « ملك فارس » (١٨٨٤) نقلها عن الايطالية الخوري يوسف معلوف شي . « حسن الانسان » و « الفتاة الخرساء » لخليل دلال .

٢) المدرسة الوطنية

التي اسسها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٣ مثلت « يوسف حسن » (١٨٦٥) لخوري نعمة الله الجلخي . « تيمور » (١٨٦٩) اقتبسه سعدالله البستاني عن « فنلون » .

٣) المدرسة الاميركية

« انتصار الفضيلة » (١٨٧٩) لانطون شحيبر . و « الشرف » ١٨٩٥ .

٤) مدرسة الثلاثة اقمار

« العيلة المهتدية » (١٧٧٢) لشاكر شقير .

٥) الجزويتية

« كسرى والعرب » خبيب شماس .

٦) المدرسة الاسقفية للروم الكاثوليك في زحلة .

« شاول وداود » (١٨٩٧) .

٧) زهرة الاحسان

« عتليا » (١٨٩٨) لنجيب جيشان .

٨) الكلية اليسوعية في بيروت

« حكم هيرودوس على ولديه » (١٨٨٩) للشيخ عبدالله البستاني ؛ « ابن السموأل » ؛ و « الميلهل » ؛ و « شهداء نجران » ؛ و « نكبة البرامكة » ؛ « وحرب الوردتين » للشيخ عبدالله البستاني ؛ و « وفاء السموأل » (١٨٨٧) للاب

خليل اندو. و « عبدالرحيم ملك حيدوس » (١٩٠١) ليوسف شبلي ابي سليمان. و « الرشيد والبرامكة » (١٩١٠) للاب انطون رباط.

٥

لو اجبنا ان نسترسل في ذكر سائر المدارس والجمعيات التي مثلت مسرحيات. والادباء الذين انتجوا تمثيليات لطال المجال. انما هذه النبذة عن النشاط المسرحي تأليفاً وتمثيلاً كان لا غنى عنها لاعطاء فكرة عن الفن المسرحي منذ مارون النقاش حتى يوسف وهبي. والاطوار التي مرّ بها. والجهود المشكورة التي بذلت في سبيله. ولكن لا بد هنا من سؤال: هل الجهود التي قامت بها الفرق المسرحية. وهل الآثار من التوا للمسرح خلقت ادباً مسرحياً؟

الآثار التمثيلية بين الفن والادب او بين الوسيلة والغاية

لا شك في ان ذلك النشاط المسرحي قد اوجد. الى حد ما. فناً تمثيلياً. انما لم يخلق ادباً مسرحياً باقياً على غرار الادب المسرحي في العالم الاوروبي. لان المؤلفين والممثلين. على حد تعبير الدكتور احمد مندور[1]. « نظروا الى فن التمثيل كوسيلة من وسائل التسلية والترفيه. ولم يخطر ببال من تعاطوا هذا الفن انه وسيلة لبث الحياة في الادب المسرحي. ولم يفكروا في ان فن التمثيل يجب ان يستند الى ادب تمثيلي يدخل في تراثنا الادبي العربي ». الفن التمثيلي شيء والادب التمثيلي شيء آخر. فالفن التمثيلي وسيلة، والادب التمثيلي هو كالشعر والقصة وسائر الفنون الادبية، غاية بحد ذاته له اصوله ومقوماته وشروطه بصرف النظر عما اذا كان الاثر الادبي سيمثل على المسرح او سيقرأ.

الخوري حنا طنوس

هذا ما ادركه الخوري حنا طنوس الذي اطلع على الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية وتراثها المسرحي: ففهم ان المسرحية، ولو كانت تزداد رونقاً وحياة وروعة بفضل الاخراج والتمثيل وحسن الاداء، يجب ان تتوافر فيها عناصر الحياة والمقومات الادبية التي تجعلها اثراً ادبياً باقياً في تراثنا الادبي الفكري، لا يفقد قيمته كل قيمته، وروعته كل روعته، اذا قرئ ولم يمثل.

---

١) في كتابه « المسرحية في الادب العربي الحديث ».

فمن هذا القبيل يمكننا ان نقول ان الخوري حنا طنوس خلق بما انتج، عدداً وافراً، مسرحاً فيه من عناصر الادب ما لم يتوافر في نتاج الكثيرين ممن سلفوا في هذا المضمار. ومن المؤسف حقاً ان الذين درسوا الآثار المسرحية غفلوا عن الخوري حنا طنوس. فلا الدكتور محمد يوسف نجم في كتابه «المسرحية في الادب العربي الحديث» ولا الدكتور احمد مندور في كتابه «المسرح» ذكرا تآليفه او اشارا اليه ولو عرضا في سياق الحديث وتعداد اسماء المؤلفين المسرحيين. ولعل سبب هذا الاغفال عدم اطلاعهم على آثاره المسرحية التي لم يطبع منها الا اربع تمثيليات من اصل ست وثلاثين.

فمن آثار الخوري حنا طنوس المسرحية التمثيليات التالية:

المخطوطة

رجل الغابة السوداء. الفرد الكبير. امير لبنان وكسرى. صبي الدهليز. ملك الديماس. الحلم الرائع والصحو الناجع. الخارث. البطل الاخرس. الاعمى البصير. تخليص الوطن. حرب داحس وغبراء. غرسيا. يوسف بك كرم. المهلهل. العقل اللبناني والدهاء العثماني: عبد المنعم امير جبيل: داود وشاول. يهوديت. قسطنطين الملك: طوبيا البار. يوسف حسن. ابي شالوم. مار لويس. يوحنا فم الذهب: ليلى العفيفة: دانيال النبي. الدنانير الحمر. قايين وهابيل. جريمة وتكفير وغفران. وسيدة لبنان بالاشتراك مع بدوي ابي نادر.

المطبوعة

النعمان الخامس. البطريرك حجولا. امير الارز. البطل المجهول: العمران: شهداء نجران (نشرتا في المشرق).

فقلة عدد المطبوع من تمثيلياته حمل بعض دارسي الادب المسرحي ونخص بالذكر منهم الدكتور احمد مندور الى القول في كتابه «المسرح» ان احمد شوقي يعتبر رائداً للادب التمثيلي اثر صدور اولى مسرحياته الناضجة «مصرع كليوباترة» عام ١٩٢٧.

وفي الواقع ان الخوري حنا طنوس بدأ ينتج ادباً مسرحياً منذ عام ١٩٠١ فكان له حتى عام ١٩٢٧ ما لا يقل عن خمس وعشرين مسرحية

الشهرها . ملك الشياميس (١٩٠١) شهداء نجران (١٩٠٣) . الحرن الخامس (١٩٠٥) . البطل المجهول (١٩٠٦) . غريبا (١٩٠٧) العميان (١٩٠٩) . داحس وغبراء (١٩١١) . يوسف بك كرم (١٩١٣) . امير جبلان وكسرى (١٩١٤) العقل البشاني والدهاء العثماني (١٩١٩) رجل الغابة السوداء (١٩٢١) . البطريرك حجولا (١٩٢٣) امير الارز (١٩٢٧) . وظل ينتج حتى عام ١٩٤٦ قبيل وفاته . فكانت خاتمة نتاجه المسرحي « جريمة وتكفير وغفران » .

طريقته في التأليف

كانت غاية الخوري حنا فنوس اختيار التفاصيل . وتحديد البصولات والعقدة والذروة وسائر الشمائل الانسانية . وكان يؤلف مسرحياته بسرعة مدهشة . وقلما انتج مسرحية الا بناء على الحاح من طلبها منه وتحت الضغط . فكان يقنع لمسرحيته تصميماً ثم يقول : « ان الرواية قد اعددتها وهي جاهزة » . وعندما كان يسأل اين هي . يشير الى رأسه قائلاً : « هي هنا » . ويستقدم اليه عدداً من تلاميذه يوزع عليهم الادوار ثم يملي عليهم الرواية . ويجمع تلاميذه ما استكتبهم فاذا بين ايديهم مسرحية .

اما الخوري حنا فلا يحتفظ بنسخة . ومن كل مسرحياته لم يكن لديه واحدة منها . لذلك ضاع العديد من آثاره وفقد . ولم يوجد له اثر . واذا كان لديه نسخة فكان يحتفظ بها حتى تمثيل المسرحية . وبعد ذلك يرفيها برجله غير مكترث لها مطلقاً . وهذا ما حدث لمسرحيته « عبد المنعم امير جبيل » المفقودة .

احد تلاميذه[1] عندما سئل عما اذا كان لديه نسخة عن مسرحية « عبد المنعم » روى القصة التالية : « ان هذه المسرحية اثر تمثيلها على مسرح القديس يوسف للآباء اليسوعيين ، صاح الخوري حنا بصوته الجهوري « نجحت . نجحت » . ورفس النسخة التي بين يديه فتطايرت اوراقها في الفضاء وتبعثرت . فاسرع احد تلاميذه النجباء[2] وقد كان اديباً وشاعراً واصبح فيما بعد نائباً ووزيراً ودبلوماسياً ، ومن مشاهير رجال لبنان السياسيين ، فلملم هذه الاوراق المبعثرات ، وجمعها الى بعضها بعضاً قائلاً : هذه قلادة في جيد الادب » .

---

١) بيير تقلا .
٢) بيير الدبا .

هذه النسخة فقدت تسعة المذكور بعد نقله في السلك الخارجي طوال سبع عشرة سنة بين عواصم الشرق والغرب .

نقد المسرحي

الى مذهب الخوري حنا الشاعرية والخطابية . واطلاعه العميق على سيكولوجية النفس البشرية . مكنته من التفنن في الاسلوب والتأثير على حواس حاضري مسرحيته وقلوبهم ليستحوذ عليها . طوراً بالترغيب والاعجاب . وتارة بالتهويل والارهاب . وتبقى الانفاس حبيسة الصدور تتأرجح في يديه بين الرجاء والامل . والجزع والوجل . حائرة بائرة قلقة . حتى تحل العقدة فيبسط الكف ويشرح الصدر . فضلاً عما في المسرحية من تنوع التقلبات والمشاهد والبغتات والمفاجآت . كل ذلك يجعل من مسرحياته اثراً ادبياً يستسيغه القارىء كما يعجب به حاضرو اخراجه على المسرح .

ولقد صفقت مسارح بيروت في الربع الاول من القرن العشرين لابطال الخوري حنا . يمثلون — على حد تعبير الدكتور فؤاد افرام البستاني — « مختلف المشاعر الانسانية في التواجع . والتوجع الشعبية : يستثيرون العواطف . ويمثلون الجمهور . في فترة من الزمن . الى مجال البطولة السامية حتى التطرف والتضحية والاستشهاد . فمن النعمان . الى شهداء نجران . الى البطريرك حجولا . الى امير الارز . الى البطل المجهول الى يوسف بك كرم وسواها . سلسلة من المسرحيات تجعل لصاحبها المركز المرموق في تاريخ مسرحنا الناشىء . اذ يبدو على اضطلاع بفنه : وتصرف بلغته : فلا يفوته حس التاريخ ولا تصوير البيئة . ولا خصب الخيال ولا فيض الشعور . كما لا تفوته لهجة الخطابة . ولا سرعة الحوار : ولا اصول الصناعة المسرحية » .

وهنا لا بد من ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : الى اي مدرسة مسرحية ينتمي الخوري حنا طنوس وباي مذهب من المذاهب المسرحية تأثر في نتاجه المسرحي ؟ .

لا يمكن الجواب عن هذا السؤال قبل ان نعطي لمحة عن نشأة الادب المسرحي وتاريخه وتطور مقاييسه واصوله ومفاهيمه . منذ ولادة الاول اليونان الى ايامنا هذه .

تاريخ الادب التمثيلي وتطوره

من الثابت الاكيد ان اليونان هم رواد الادب التمثيلي الاول : هم الذين وضعوا اصوله وفنونه وسنوا قواعده وقوانينه . وقد نشأ في عبادة الله الخمر والكرم عند اليونان « ديونيزوس » وكان التمثيل عندهم . وهو يجمع بين الرقص والموسيقى والحوار والغناء : متعة لكافة الحواس الانسانية . وأول مسرحية مأساة كانت لابي المسرح « ثسبيس » Thespis [1] قدمت في آتينا عام ٥٣٤ قبل المسيح ثم تتابع بعده « اشيل »[2] الذي ألف تسعين مأساة لم يصلنا منها الا سبع . و « سوفوكل » الذي ألف مائة وعشرين مأساة لم يعثر منها الا على سبع ؛ و « اوربيد »[3] الذي ألف ثماني وسبعين مأساة لم يبق منها الا ثماني عشرة .

وأتت القرون الوسطى . فاهملت التراث اليوناني والروماني القديم . بعد انتشار المسيحية في العالم الغربي . الا انها عادت بالمسرح الى كنف الدين تستقي مواضيعه . من حياة السيد المسيح ومأساة صلبه . ومن حياة القديسين .

وكان حركة البعث . التي تبتدئ به النهضة الاوروبية الحديثة . الفضل الكبير على الادب التمثيلي فاعادت الانسانية الى الثقافة والاداب اليونانية والرومانية القديمة . تنهل منها مواضيعها وتبعثها من جديد . وهذا هذا البعث يتجلى في القرن السابع عشر في المسرح الكلاسيكي الفرنسي . وفي ما انتجه ادباء المسرح امثال كورناي . وراسين .وموليار الذين تقيدوا تقيداً شديداً بالاصول التي حددها الفيلسوف اليوناني ارسطو والشاعر الروماني « هوراس » .

فالفن التمثيلي : في مفهوم ارسطو وهوراس . هو على حد تعبير الدكتور احمد مندور . محاكاة للحياة . والمسرحية مأساة كانت ام ملهاة يجب الا تتناول حياة الشخصيات ولا فترات طويلة منها بل ازمة من الازمات او حادثاً من الاحداث التي تعرض للشخصيات في فترة محدودة من الزمن . « فما تكاد الستارة ترفع عن المسرحية الكلاسيكية الا والازمة قد تجمعت عناصرها وتحددت اوضاعها ثم تسير الازمة باحداثها حتى تبلغ قمتها ويشتد اشتباكها ثم تأخذ في الانفراج والحل حتى تنتهي المسرحية »[4] .

---

١) عاش في القرن السادس قبل الميلاد .
٢) Eschyle عاش من عام ٥٢٥ الى عام ٤٥٦ ق.م.
٣) Euripide (٤٨٠–٤٠٦) ق.م.
٤) التعبير للدكتور احمد مندور في كتابه « المسرح ».

هناك رأي آخر يحصر ان المسرحية يجب ان تتوافر فيه وحدتان . وحدة موضوع ووحدة الزمن الذي حدده بنهار . ثم اضاف على الوحدتين المذكورتين الفرنسيون توماس سيبليه[1] Sibilet ورونسار[2] Ronsard ودوبيلي[3] Du Bellay وخصوصاً الايطالي سكاليجر[4] Scaliger وحدة ثالثة هي وحدة المكان . فجعلوا من هذه الوحدات الثلاث قانوناً للمسرحيات قلده الكلاسيكيون الفرنسيون وتقيدوا به . فاذا الزمان يحدد بأربع وعشرين ساعة والمكان بمدينة واحدة .

وكل مسرحية لا تتوافر فيها الوحدات الثلاث كانت عرضة للنقد حتى ان الشاعر الفرنسي كورناي اتهم بعدم تقيده بالوحدات الثلاث في مسرحية « السيد »[5] واحتدم الجدل حول صحة هذه التهمة الى درجة حمت الاكاديمية الفرنسية عام ١٦٣٦ على تأليف لجنة برئاسة الاديب شابلان . لدراسة هذه القضية وبيان رأيها في الموضوع . فكان تقرير لجنة ان « كورناي » خرج في مسرحيته على قانون الوحدات .

ورأى الكلاسيكيون الفرنسيون ان ارسطو قد قسم الادب التمثيلي الى قسمين منفصلين : فن المأساة وفن الملهاة . فجعلوا من هذا التمييز بين الفنين قاعدة « فصل الانواع » التي تحرم جمع الفنين في مسرحية واحدة . فالمأساة رصينة تستمد موضوعها من حياة الآلهة والابطال . والملهاة فن ضاحك ساخر يستمد موضوعه من حياة الشعب وافراده . ولما كانت المسرحيات « المأسوي » تستقي مواضيعها من الاساطير وقصص البطولات التاريخية القديمة : فقد اصبح كتاب المؤرخ اليوناني « بلوتارخ »[6] عن « حياة العظماء » وكتابا المؤرخين « هيرودوت »[7] اليوناني و« تاسيت »[8] الروماني من اهم مناهل المسرح الكلاسيكي . حتى ان الشاعر الفرنسي « راسين » اضطر الى الاعتذار في مقدمة مسرحيته « باجازت »[9] Bajazet لانه استمد موضوع مسرحيته من التاريخ التركي المعاصر .

---

١) (١٥١٢–١٥٨٩) .
٢) (١٥٢٤–١٥٨٥) .
٣) (١٥٢٢–١٥٦٠) .
٤) جول سيزار سكاليجر (١٤٨٤–١٥٥٨) عالم وطبيب ايطالي .
٥) عاش كورناي من ١٦٠٦ الى ١٦٨٤ وألف مسرحية « السيد » عام ١٦٣٦ .
٦) (٤٧–١٢٠)
٧) (٤٨ق–٢٥) .
٨) (٥٥–١١٩) .
٩) (١٦٣٩–١٦٩٩) ألف مسرحيته « باجازت » عام ١٦٧٢ .

الملهاة الدامعة

واطل القرن الثامن عشر بفلاسفته الذين اعادوا النظر في كل ما هو موروث من اصول وقواعد ومقاييس فكرية وادبية . يناقشونها ويحللونها . ولما وضعوا المسرح واصوله الكلاسيكية وقوانينه على محك الدرس والنقد . تبين لهم ما في حصر المسرحيات بالمآسي والملاهي فقط من خطأ . ذلك ان المآسي الفاجعة والملاهي الضاحكة تعكس حالات شاذة متطرفة . فالحياة التي يجب ان تكون المسرحية محاكاة لها ليست عابسة دامعة كالمأساة . ولا هازلة ساخرة كالملهاة . انما هي مزيج من الاثنين .

لذلك قال فلاسفة القرن الثامن عشر يجب خلق نوع جديد من المسرحيات يتوسط النقيضين ويجمع بين المأساة والملهاة . هو « الملهاة الدامعة » Tragi-Comédie التي كانت الخطوة الاولى في طريق الخروج على المسرح الكلاسيكي . وجسراً بينه وبين الرومانطيقية .

الرومانطيقية

فالرومانطيقية كانت ثورة جامحة على الكلاسيكية . ومعولاً دك اسسها واصولها وقواعدها ومفاهيمها . ولعل اعنف من حمل على اصول المسرح الكلاسيكي الشاعران الفرنسيان « فكتور هوغو »[1] في مقدمة مسرحيته « كرمويل » عام ١٨٢٧ ثم « الفرد دي فيني » Alfred De Vigny عام ١٨٢٩ اذ هاجما بضراوة قانون « الوحدات الثلاث » ومبدأ « فصل الانواع » . ولكن الرومانطيقية مع تحريرها الادب التمثيلي من تبعية التراث اليوناني والروماني من حيث استقاء المواضيع . ومن قيود الكلاسيكية من حيث قوانين الوحدات الثلاث وفصل الانواع . ظلت محتفظة ببعض الاسس التي تميز بين المأساة والملهاة من حيث الموضوع وجديته واسلوبه ولغته .

وفي اواخر القرن الثامن عشر وفجر القرن العشرين اطل على المسرح عمالقة امثال « هنريك ابسن »[2] النروجي و « برنارد شو »[3] الايرلندي اللذين

---

١) ١٨٠٢–١٨٨٥ .

٢) عاش من ١٨٢٨ الى ١٩٠٦ هو احد زعماء المسرح الحديث . اشهر مسرحياته : بيت الدمية (١٨٧٩) الاشباح (١٨٨٢) عدو الشعب (١٨٨٢) سيدة البحر (١٨٨٨) من نستيقظ من بين الاموات (١٨٩٩) .

٣) عاش من ١٨٥٦ الى ١٩٥٠ جعل من المسرح منبراً لمهاجمة البورجوازية والرأسمالية . اشهر مسرحياته بيت الارامل (١٨٩٣) تلميذ الشيطان (١٩٠١) في طريق الزواج (١٩٠٧) مهنة مسز وارين (١٨٩٣) لا يمكن ابداً الفرل (١٨٩٨) كانديدا (١٨٩٧) قيصر وكليوباترا (١٩٠١) .

مستأنف ثورة الرومانطيقية وكذلك فشره من الكلاسيكية ومذاهب العصر التقليدية. اذ لم يرد ما يمنع من استقاء مواضيع المآسي من حياة الشعب العادية. فكان هذا الاتجاه الجديد فتح نوع جديد من المسرحيات فيه من المأساة التقليدية جديتها ثم تختلف عنها في شعبيتها وموضوعها. فسميت هذه المسرحيات «مآسي» او «الدراما الحديثة».

ان «هنريك ابسن» عندما يعرض مواضيع الخلقية الاجتماعية والنفسية النفسانية في مسرحياته. حيث يعالج في «بيت الدمية» (١٨٧٩) وضع مرأة. وفي «الاشباح» (١٨٨٢) قضية الوراثة. وفي «عدو الشعب» (١٨٨٢) آفة الخبل السياسي. وفي «سيدة البحر» (١٨٨٨) وفي «عندما نستيقظ من بين الاموات» (١٨٩٩) مشاكل هي من صميم الحياة اليومية. خلق بذلك «مسرح افكار» مبنيه فيه على حد تعبيره «طرح مسئلة لا ايجاد الاجوبة عليها».

«ما» «برنارد شو» فقد غاص في حياة الشعب العادية يتناول منها مواضيع مسرحياته. ففي «البطل والجندي» و «رجل القدر» يهاجم اسطورة البطولة. وفي «لا يمكن ابداً ان تقول» يسخر من علاقات الآباء بابنائهم. وفي «مهنة مسز وارين» يعرض مأساة الدعارة.

فعندما نقرأ او نشاهد مسرحيات «هنريك ابسن» و «برنارد شو» التي اتخذا ابطالاً لها افراداً من عامة الشعب وحتى من اسفل طبقاته الاجتماعية. كالعاهرة «مسز وارين». بينما ابطال المآسي الكلاسيكية كانوا الهة وانصاف الهة او ملوكاً او امراء او نبلاء: ندرك التطور الكبير الذي طرأ على مفاهيم الادب التمثيلي واصوله عبر «ارسطو» و «هوراس» و«سكاليجر» و«هوغو» و «فيني» حتى «ابسن» و«شو».

هذا الاستطراد لعرض تطور الادب التمثيلي: منذ عهد رواده الاول اليونان الى عهد عملاقيه المحدثين «ابسن» و«شو»: مروراً بالكلاسيكية ثم بـ «المنياة الدامعة» ثم بالرومانطيقية. ما دفعنا اليه مجرد حبنا في بحثه. وقد عالجه غير واحد من دارسي الادب التمثيلي: بل رغبتنا في تحديد وضع الخوري حنا طنوس ضمن اطار المسرح العالمي ومفاهيمه المتعددة. عبر مدارسه المتفاعلة المتكاملة خلال العصور والاجيال.

وعليه فهل الخوري حنا طنوس كان في نتاجه المسرحي من اتباع المدرسة الكلاسيكية او المدرسة الرومانطيقية او المدرسة العصرية؟

مدرسة الخوري حنا طنوس

ان مسرح الخوري حنا طنوس . والتبسط في تحليله وتفصيله . يحتاج الى درس خاص طويل مستقل ، يتضمن عرض كافة مسرحياته ونقدها وتشريحها وتبيان ميزاتها وخصائصها . محاسنها ومساوئها .. وهذا ما لا مجال له في هذه الدراسة الشاملة . فجل ما يمكننا ان نقوله في هذا الصدد ان مسرح الخوري حنا طنوس هو مزيج رائع لمدارس الثلاث .

فيه من المدرسة الكلاسيكية

أ) إستقاء المواضيع من التاريخ

١) العهد القديم : داود وشاول : يهوديت . ضربة البار . يوسف الحسن . ابشالوم : دانيال النبي . قايين وهابيل .

٢) تاريخ القديسين . مار لويس . يوحنا فم الذهب . ليلى العفيفة .

٣) التاريخ العام . الفرد الكبير . قسطنطين الملك . رجل الغابة السوداء . الاعمى البصير : صبي الدهاليز . البطل الاخرس .

٤) التاريخ العربي : شهداء نجران . داحس وغبراء . النعمان : الخارث . المهلهل : العمران .

٥) التاريخ اللبناني : البطريرك حجولا : البطل المجهول : امير الارز . يوسف بك كرم : امير لبنان وكسرى . عبد المنعم امير جبيل : تخليص الوطن .

ب) جدية الموضوع : تألق الكلمات : بلاغة التعبير .

فيه من المدرسة الرومانطيقية

١) عدم تقيده تقيداً تاما بقانون الوحدات الثلاث .

٢) عدم احترامه لفصل الانواع ففي بعض مسرحياته كان يجمع التاجع الباكي الى الضاحك الزاهي : ولكن بشكل يسوده التناغم والتناسق والتآلف .

فيه من المدرسة العصرية

١) استقاء مواضيع من التاريخ الحديث . مثل يوسف بك كرم ، العقل اللبناني والدهاء العثماني ،

٣) عرض ومعالجة مواضيع فلسفية اجتماعية استفاد من حاضرنا الراهن في مسرحيته « جريمة وتكفير وغفران » .

وقبل ان ننتقل الى اجتياز بعض من مسرحياته . لا بد لنا من الاشارة الى اننا في محاولتنا تقييم عبقرية الخوري حنا طنوس . نعترف بان نتاجه الادبي . هي احترامنا له . هو دون نبوغه ومستوى مواهبه ومقدرته وطاقته. فالخوري حنا مرقس — الذي زخرت شخصيته بمواهب عديدة : متنوعة . وثروات عقلية لا حد لها ولا حصر . وعالية فكرية يحسده على بعضها غير واحد . من محترفي الادب . كيف لا وقد كان شاعرًا وخطيبًا . وريـاضيًا ولاهوتيًا . واديبًا . ومؤرخًا ذا ثقافة عميقة وشاملة — كان بامكانه ان يعطي اكثر مما اعطى واجود . لو توافرت فيه وله العوامل والشروط التالية :

١) لو كان علمانيًا . لكانت اتسعت امامه آفاق ارحب واخصب لعطاء الفكري ومعالجة مواضيع صدّه عن معالجتها ثوبه الكهنوتي .

٢) لو كان راهبًا . بدلاً من خوري . لكان توافر له استقرار حياتي يسرّ له المناخ النفساني والادبي اللازم لعطاء الفكري فانصرف الى الانتاج الادبي بطمأنينة وراحة بال. بدلاً من السعي الدائم الى العمل لتحصيل كفافه اليومي وكفاف من شاء الدهر ان يكونوا على عاتقه .

٣) لو كان اقل اهمالاً وكسلاً : لكان اعاد النظر في انتاجه ؛ وهذب فيه وشذب ونقح ما انتجه بسرعة وعفوية وارتجال .

٤) لو كان اقل مواهب لكان اعتمد الروية والاناة في التأليف . فذكاؤه ان افاده كثيرًا ؛ فقد جنى عليه ايضًا كثيرًا .

الخاتمة

لا شك في ان هذه الدراسة التي لا تتضمّن الا غات من حياة الخوري حنا طنوس ؛ ومضات من نبوغه . واشارات عابرات الى مواهبه وخصائصه ؛ تتخللها من نكاته ونوادره مقتطفات ؛ ومن ادبه المسرحي مختارات ؛ هي اعجز من ان تفي حق ادبنا الكبير علينا ؛ وتقيّم فضله على ادبنا العربي عامة ؛ وعلى الادب المسرحي خاصة .

فقلة المطبوع من آثاره جعلته في عداد المغمورين من ادبائنا الافذاذ؛

وحرمت دارسي الادب والباحثين في آثار اعلامه . معيناً غزيراً للنقد والبحث والتحليل فالتقييم .

فالذي وهب المسرح العربي ما لا يقل عن سبع وثلاثين مسرحية . بها صقل اذواقاً ، وايقظ ضمائر . واغنى عقولاً . وهدى نفوساً ، وهذب ميولاً وعلم فضائل ومروءات وبطولات . طوال النصف الاول من هذا القرن . من حقه علينا — قدراً للفضل . وعرفاناً لجميل . وزهواً بادب به نفخر ونعتز — ان نبعثه حياً في آثاره . ونعمل على طبعها ونشرها . قبل ان يأتي العث على البقية الباقية منها . وندخل ادبه المسرحي في المناهج التعليمية الرسمية .

فاذا كان مارون النقاش ابا الفن التمثيلي العربي ورائده الاول . فالخوري حنا مطنوس : ان لم يكن ابا الادب المسرحي العربي : فانه دون شك احد ابرز رواده الاول . واشرقهم وجهاً . واصوفهم وافرسهم في ميدانه . وارصنهم مداميك في قبابه العاليات .

وان لم تدر عليه ثماره الادبية . طوال حياته : الا التصفيق : على حد ما صرح به قبيل وفاته ، لانه كان زاهداً بالدنيا وخيراتها الترابية ولم يعرف او يشأ ان يشمّر مواهبه ، ويستدر طاقته على العطاء والانتاج : وعافيته العقلية : ما ييسّر له العيش بطرس وفلس[1] افليس من الواجب ان يعيش بعد مماته بعقل وروح في الكتب التي الّفَ والادب الذي انتج ؟

وان كان لنا من امنية ، بها نختم هذه الدراسة : ففي ان نرى ذوي همة ، من القيمين على شؤون التربية والتعليم في لبنان : ينفضون الغبار عن شخصية ادبنا المنسي ، ليطل ، على هياكل الادب العربي : بوجهه المشرق ، ويتصدر في مناهجنا التربوية : مركزه بين رسل الكلمة : وكهان الحرف : وسادة القلم .

فان لم يقدّر له ان يعيش : حياً . من ادبه : فلا اقل من ان يحيا : ميتاً : بأدبه .

---

١) كان قد اطلق على نفسه لقب « حنا لا طبس ولا فلس » راجع صفحة ٦٧٦ .

موجز لبعض مسرحياته ومقتطفات منها

البطريك حجولا

تدور هذه المسرحية حول استشهاد البطريك جبرائيل حجولا الذي قتله المماليك في معبد سيدة ايليج بيذوق على عهد الاشرف سلطان مصر حوالى عام ١٣٦٧ ؛ وحول تنافس الاخوين غزال واسد القبسيين العاقورين على المقدمية ؛ وفوز غزال مما حمل اخاه اسداً على الكيد له والتآمر عليه وعلى البطريك لمساندته اياه .

امير لبنان وكسرى

تجري حوادث هذه المسرحية في اوائل القرن السابع عشر . سنة افتتح كسرى انو شروان ، ملك الفرس ، اورشليم . واستولى على الصليب المقدس . وكان الملك « هرقل » لما بلغه الخبر . قد حشد جيوشه وزحف على بلاد الفرس . كما ان عدداً من الامراء اللبنانيين استنجدهم الحمية فلحقوا بجيوش هرقل مع اولادهم وفرسانهم . لكنما غدر بهم رجل ماكر فوقعوا اسرى في يدي كسرى الذي اذاقهم ضروباً من العذاب والاهانات ليجحدوا دينهم فلم يفعلوا .

وكان من بين الذين اسرهم كسرى ، كبير امراء لبنان الامير سمعان والامراء شديد والياس وعساف الذين بقوا في قبضة كسرى الى اليوم الذي استرجع هرقل الصليب وخلصهم من الاسر .

الاعمى البصير

تجري حوادثها حول مقتل كارلوس الاول ملك انكلترا واستيلاء « كرمويل » على مقاليد الحكم .

الفرد الكبير .

تتناول محاربة الفرد الكبير القراصنة حوالى عام ٨٧٨ وتأسيسه مملكة انكلترا وجهاده في سبيل المسيحية .

رجل الغابة السوداء

كان لملك وزير اسمه هرمان. الملك عادل لكنه مخدوع. ووزيره منافق خداع يشي بمن في القصر حتى يبعدهم عن البلاط. فحدث ان وشى على رجل شريف نبيل اسمه جيرالد. ولما حكم عليه بالموت. هرب واختبأ في «الغابة السوداء» خمس عشرة سنة. تاركاً ولداً له اسمه لاوون شب خلال هذه السنين واصبح قائداً لجيوش الملك. واخيراً تدور على الباغي هرمان الدوائر: وينتصر الحق: فيمجد الجميع حكمة الله وينتفون حول الملك الذي بصلاحه ينقذ المخلصين. وبعدله يمحق المنافقين: وبرحمته يعفو عن التائبين.

النعمان الخامس

غضب كسرى على النعمان فلجأ الى هانئ بن مسعود وقبيلة بني شيبان: ونتج عن ذلك حرب «ذي قار» اول معركة انتصر فيها العرب طلاب الحرية على المستعمرين الفرس. ففي المسرحية تمجيد لمآثر العرب من وفاء واباء: من حرية وشمم: ودعوة صريحة الى التخلص من المستعمر الذي كان جاثماً على صدر الامة العربية.

مقتطف من مسرحية النعمان الخامس

الفصل الاول

من المشهد الاول

حنظلة احد اشراف بني بكر يستحث البكريين كي يجيروا النعمان ملك الحيرة، بعد ان هرب من كسرى ابرويز ملك العجم ولم يجد مأوى له بين بعض قبائل العرب

«حنظلة – شريك – عمرو – وهم من اشراف بني بكر»

حنظلة: أذمة غير ذمة العرب؟ أشيمة غير شيمة الآباء؟ أدين غير دين الوفاء؟ ايترك الله امة العرب مفتونة بالباطل مغبونة عن الحق، لا ساقي ولا واقي: لا حادي ولا حادي؟ ملك العرب يتوعده ملك العجم، فتخذله امته: وتتقاعد عنه عشيرته. يطوف في القبائل ولا يقبله منهم احد. يستنجد العشائر ولا يجد من ينجد. يستجير بكر بن وائل وليس من يجير. فتلعب به صعاليك

العرب وتخطفه ذئابها . والذي بيده روح حنظلة لاسريبنّ في الارض حتى تستقيم القناة المثوية . لاشدخنّ بافوخ الشقاق . واشرمنّ جبهة النفاق . واجدعن انف الفتنة . واتفلنّ في وجه الشيطان. هذه اجداث اجدادكم التكرونها. عمرو : سقتها الديم وغذتها النقم ورعتها النعم .

حنظلة : كانوا كماة السيف حماة الضيف اباة الخسف . كانوا رجالا يحمون حوضهم ان يتبدم . ويمنعون جارهم ان يضام. منهم جساس بن مره حامي الذمار قتل ابن عمه وسيد قومه كليباً بناب جار . واسعر لدفع العار نسة ابادت عشيرتين وهو القائل :

انـــا جاري لعمري فاعلموا ادنى عيـــالي
وأرى نجاري حتماً كبعيني من شمالي
ان نجـــز علينا دفع ضيم بالعوالي
فأقي الذم مهلاً دون عرض الجار مالي
سأؤدي حق جاري ويدي رهن فعالي
او ارى الموت فيبقى لؤمه عند رجالي

المشهد السابع

الاعشى . شعر اعمى يتخل على اثواف البكريين يستعيم على اجارة النعمان .

الاعشى : (وهو داخل) وسعوا افجال للموت . افسحوا المكان للموت .

الجميع : الموت ؟ (حركة خوف وارتجاف في الجمهور)

شريك : وأي موت فانا لا نرى جنازة ولا ننظر نعشاً ولا نسمع نوح النوادب . فأين الميت ؟

الاعشى : (يسحب علم المنذرة) هوذا الميت علم آل محرق بني المنذر . يبرق العرب . راية المروءة والوفاء . مات الوفاء فجئت ادفنه بين اصحاب المروءة والوفاء . احفر الحفرة عميقة يا حفار .. وذر عليها التراب كثيفا .: وهكن الحصى والجنادل :. واكتب على القبر : هذا لحد الوفاء .

شريك : آه يا شحاذ

الاعشى : صه. فاحسن الايام في عهد مالك وعوف وسعود وقيس وحجدرا
فيا لزمان كان نسل جدودنا يخلق في جو الفضاء تكسيرا

يمر على احيائهم متنسماً نسيماً ذكياً بالرفاه معطرا
ولا الشمس في فلك النهار بضوئها ولا البدر يبدو في الليالي منورا
ولا الروض في فصل الربيع بزهره اذا غرد الشحرور والورد ازهرا
بأبهى وانقى من خصال جدودنا واحسن وقعاً في العيون وانضرا
اذا حل جار في فناء ديارهم تمنع عنه جيش كسرى وقيصرا
فان لم تجيروا جاركم بدمائكم فكونوا عبيداً للهوان واحقرا
فهذا لواني يا لقومي ممزقاً وقد كان قدماً في الحروب مظفرا
وهذا لواء العز ذل الا احضروا حضيراً عميماً للواء فيقبرا
الا وادفنوا في التراب بمجد جدودكم فيبقى ذليلاً في التراب معفرا

شريك : كفى كفى نصر الله النعمان ؟
الجمهور : نصرالله النعمان اين النعمان ؟
النعمان : جاركم بينكم .
الجمهور : رحبت بك الدار يا خير جار
النعمان : يا بكر وائل . نهجتم منهج اجدادكم . فاصبحتم زبدة الامم . وصفوة العرب . انتم كرام وآباؤكم كرام .

هم القوم . ان قالوا اصابوا . وان دعوا اجابوا . وان اعطوا اطابوا واجزلوا
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
فأولهم فوق المجرة قاعد وآخرهم بين الصناديد اول

الفصل الثاني

المشهد الثاني

لما اجار هانئ بن مسعود النعمان ؛ ابى عمرو النعمان الا ان يرمي فتنة بين قيس بن هانئ وحسان بن النعمان ليستدل على نجباء ولده — ويكون متكئاً بزي عراف .

العراف : (يضع رملاً ويخط فيه خطوطاً ويتابع ذلك كل الفصل) الخط الاوسط المحمود ، طالعه مسعود على المولود ؛ صاحب معالي وجود .
حسان : (يقول وهو داخل الى قيس الذي برفقته) هذا عراف
قيس : بل هذا طارق بالحصى .
العراف : (كأنه لم يسمعها) نصف رسمه ، تحت رسمه . بالف نسمه . والف نعمه ، دون نقمه . والف رحمه دون غمه .
حسان : من الرجل ؟

العراف : سطيح بن جنديح . يقول الصحيح . ويعرف الملح والقبيح.
قيس : اتعرف الغيب ؟
العراف : استطلع النجوم . واستجلي الغيوم . وابدد الهموم عن المغموم.
حسان : اقرأ طالعي .
العراف : حسان بن النعمان . فارس القرسان . صريع الزمان . بهجة الانس والجان . دائم يقظان كالسرحان .
قيس : وأنا ؟
العراف : قيس بن هاني . هاني بن مسعود . سعد السعود . ابو الوفاء والجود . كريم الآباء والجدود . واف بالعهود . منجز للوعود.
حسان : ما يحصل لنا في الزمان الآتي ؟
العراف : (يطرق برهة ويعد خطوطاً بانامل) احدكما يملك على العرب : وينال الارب . ويعيش بالطرب .
حسان : والآخر .
العراف : (يطلع بالاثنين دون ان يتكلم) .
حسان : (بعدة) والآخر ؟
العراف : يعيش بلا ام ولا أب .
حسان : أحق ما تقول ؟
العراف : نعم . والشفق ، والغسق . والقمر اذا اتسق : ان ما اخبرتكم به لحق .
قيس : أصحيح ما تقول يا سطيح ؟
العراف : اي ، ورب السماء والارض ، وما بينهما من رفع وخفض ، ان ما أنبأتكم به صدق بحت وحق محض .
حسان : ومن ، ويحك ، يعيش بلا ام ولا اب ؟
العراف : من بالمنافرة يغلب ؟
قيس : ومن يملك على جميع العرب ؟
العراف : من اذا تفاخرتما غلب .
حسان : لسنا بمتفاخرين ، لا ام لك .
العراف : اذن تعيشا طول الحياة ذليلين .
قيس : بلى ، نتفاخر ولا نرضى الذل ، قد علمت العرب انا بناة بيتها الذي لا يزول ، ومغرس عزها الذي لا يحول ، لانا ادركهم للثأر وامنعهم للجار .

اذا قست ابيات الرجال ببيتنا ... وجدت لنا فضلاً على من يفخر
تعالوا فعدوا تعلم الناس انا ... لنا الفضل فيما اورثته الاكابر

حسان : لقد علمت العرب انا فرع دعامتها . وقادة زحفها . لاننا ورثنا المجد كابراً عن كابر .

انا اعز الناس قوماً واسرة ... واضربهم لكبش بين القبائل
انا سرة الناس في كل بلدة ... اذا نزلت بالناس احدى النوازل

قيس : اروني كسعد وقيس وهانئ ... وعمرو وعبدالله ذي الباع والندى
فكانوا على افناء بكر بن وائل ... ربيعاً اذا ما سال سائلهم جدى
وشرت على آثارهم غير تارك ... وصيتهم حتى انتهيت الى المدى

حسان : لنا العزة القعساء والحسب الذي ... بناه لنا في القديم جدنا
فهيهات قد ناجى القرون التي مضت ... مآثر نخم مجدها وتعدد
وهل احد ان مد يوماً بكفه ... الى الشمس في مجرى النجوم يناها

قيس : منا الذي سد الثنية غدوة ... في يوم قضة يوم تخلاق النسم
منا الذي اسر المهلهل خانعاً ... منا الذي غلب الاعاريب والعجم

حسان : يا من جهلت مقام آل محرق ... نحن الذين تحكموا بين الامم
كل الذين ذكرتهم متفاخراً ... كانوا لاجدادي عبيداً او خدم

انا اكرم منك حسباً : واثبت منك نسباً : واطول منك قصباً .
قيس : انا خير منك ليلاً ونهاراً .
العراف : (في سره) الآن حمي الوطيس ، وذهب التدليس : ودخل لسان ابليس .
حسان : انا اخر منك لقاح : وخير منك في الصباح .
قيس : انا خير منك اثراً : واحد منك بصراً : واعز منك نفراً .
حسان : انا انفذ منك لساناً : وامضى منك سناناً .
قيس : انا اقتل منك للكماة : وافك منك للعناة .
حسان : اني اعظم العرب غناء : واحدهم لقاء .
قيس : اني اعظم العرب بأساً : واشدهم مراساً .
حسان : انا ابن اعظم ملوك العرب : وأكرم ساداتها .
قيس : انا ابن اقرس الفرسان عند الطعان .

حسان : اني انتسب الى عشرين ملكاً ملكوا رقاب بني عدنان وقحطان.
قيس : اني انتسب الى عشرين فارساً كلهم اسد شرى ورجال وغى .
حسان : بي صاحب الخورنق والسدير وذي الشرفات .
قيس : اني ارفع منارًا . واعمر دارًا . واغزر مالا . واقدر رجالا .
قيس : بي صاحب المشهب والاحمر والشرفيات .
قيس : بي اعز جارًا . وامنع منك ذمارًا .
حسان : انا ابن النعمان بن المنذر وحسب .
قيس : انا ابن هانيء بن مسعود وكفى .
حسان . اني سيد ابيك . والسيد افضل من المربى .
قيس . اني مجير ابيك . والمجير افضل من المستجير .
حسان : تمتن علينا بجوار ابيك ؟ فبئس الاجارة تثويبا المنة .
قيس : (الى العراف) تحاكمنا اليك ايها العراف فاحكم بيننا .
العراف : والقمر الباهر . والكوكب الزاهر . والغمام الماطر . وما بالجو من طائر . وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر . لقد سبق قيس حساناً الى المفاخر .
حسان : لا والنعمان لا ارضى بحكم العراف . فمن انتكاس الزمان اقتناء حكماً .
قيس : بأي شيء ترضى ؟
حسان : بالمبارزة فالغالب يكون الافخر .
قيس : لا ابارز جاري فاني من قوم لا يلحقون بالجار ضيماً .
حسان : ولقد ملأت وجهي فضيحة . انكم والله لقوم . لا يعز لكم جار ولا تنبح الكلاب في منزلكم الا على جاركم .
قيس : (يتبدد) تشتمني وانت في جواري .
حسان : بل اصفعك يا صفعان (يصفعه على وجهه) .
قيس : (يرفع يده ليضرب ثم يرجعها ويقول) جاري . جاري لو لم يكن جاري .
حسان : (وهو خارج) سبق السيف العذل .

يوسف بك كرم

تدور هذه المسرحية حول جهاد يوسف بك كرم ضد المتصرف داود باشا تخفيفاً للضرائب التي اثقل بها كاهل اللبنانيين .

مقتطف من رواية يوسف بك كرم

المشهد الاول من الفصل الاول

يوسف كرم — سعد داود بك

كرم : قلت لك : لو انطبقت هذه السماء على هذه الارض لا يرضى ابن كرم بما يمس كرامة لبنان .

المعتمد : ارفض صداقة الحاكم الاكبر ؟

كرم : انما ارفض ظلماً يلحق بوطني .

المعتمد : ان اذعنت لمشيئة المتصرف الشريفة . شاطرته الاحكام . فتصبح حاكماً على جميع النصارى من نهر الكلب الى جبل النصيرية .

كرم : لا اقبل ملك الدنيا . ولبنان مظلوم .

المعتمد : وما ذنب المتصرف والدول العظام سنت نظام الجبل الجديد ؟

كرم : لست احتج على النظام الجديد : وان كان فيه مدعاة للاحتجاج . انما على الاقلام الستة احتجاجي . اما كفاهم الجرح حتى ذروا عليه الملح ؟ اما كفاهم ان نزعوا استقلالنا القديم . وخفضوا رأس لبنان الشامخ : وخلعوا عنه حلة مجده الباذخ . حتى طرحوا عليه قميص الفقر والعار : وجللوه بجلباب المسكنة والشنار . وطالما رفل ببرد العز والفخار . ورتع بمروج الخصب والازدهار .

المعتمد : ان المتصرف يرغب في اعلاء شأن الجبل ورفع منارة . وهو يسعى جهده بما يؤول الى الاصلاح : ويزيد البلاد ثروة وحياة .

كرم : ان كان ذلك صحيحاً فاله يضرب ضرائب تنوء تحتها ظهور الناس . ان كان ذلك حقاً فما باله لا يرجع عن عناده . ولا يحيد عن تشبثه بالاقلام الستة ؟ فقد افهمته انها سم زعاف قتال تجمد حركة الدم في عروق الزراعة وتلاشي موارد الارتزاق من البلاد وتختنق حياة الثروة في قلب لبنان .

المعتمد : الا تعرف ان داود مستبد برأيه . فهو لا يثنني عن مرامه ولا يتحول عن قصده ولو كان دونه خرق القتاد والسيف الحداد .

كرم : وهو لا يعلم ان كرماً مستبد بعزمه متشبث بحزمه ، وهو لا

ينكفىء على عقبيه ولو كان تحت قدميه اعناق اعادية وبيرق حامية ؟

المعتمد : بماذا اجيب مولاي ؟

كرم : امض وقل للمتصرف : لا يخلع كرم السلاح حتى يخلع الليل النهار او يرفع داود الاقلام عن عاتق الانام . وان بغى مصراً على عناده فليتأهب لملاقاة الابطال . وتكبد الاهوال . بحرب تشيب ذوائب الاطفال .

المعتمد : تربص للامر يا كرم . وتروَّ بالعواقب . فاني لك من الاصدقاء المخلصين ؛ والاولياء الناصحين . فلا طاقة لك قبل المتصرف . فان حبيشاً تنصره وانت لا ناصر لك الا بعض الرجال .

كرم : الرب يعضدني . فلا ارهب ربوات الشعوب . اني عن احق ادافع ؛ وللمظلوم انتصر . وما خذل الله المتصرين للمظلومين . فانا واثق بالله ورجالي واللبنانيين .

المعتمد : ثق بالله ورجالك ما استطعت ؛ لكن على اللبنانيين لا تعتمد . فيهم احزاب متشعبون بكلمتهم ؛ متقلبون برأيهم ؛ متزعزعون بعزمهم . وحياتك ؛ يعز علي أن اراك ؛ وانت وحيد البلاد وفخر العباد . هدفاً لسهام اصحاب الاغراض وذوي الغايات .

كرم : لا سبيل لاصحاب الاغراض ان تستهدفني ، ولا طاقة لذوي الغايات ان تستخدمني . فما انا الا رجل رأى المظالم تغشى بني وطنه فوقف في وجه الظالمين وهو يصيح : ردوا المظالم عنا والا ...

المعتمد : ان لم تذعن يصبح مالك وحياتك وشرفك في خطر .

كرم : مالي ؛ وحياتي ؛ غبطتي وهنائي ؛ عزي وشرفي ؛ فدى عنك يا لبنان . ان اذل وتعز انت . وان اشقى انا وتسعد انت . ان اموت انا وتحيا انت ؛ هذا كل مناي .

المعتمد : افتحب مقابلة المتصرف فلعل بالمقابلة يزول سوء التفاهم .

كرم : ارضى بمقابلته شرط الا تمس كرامتي بحضرته .

المعتمد : لا يمس احد كرامتك يا اكرم الناس . فها اني اتصرف لاقاوض المتصرف بالمقابلة ؛ فلعل الله يلطف بلبنان .

المشهد الثاني

كرم (وحده)

لبنان يا جنة الفردوس لبنان ... يا روضة بسناها الكون يزدان
من رأوا انه الفردوس ما غلطوا ... كل البدائع فيه وهو بستان
بستان حسن به الانهار جارية ... وماؤه الشهد والخضراء مرجان
فيه الينابيع ما اشهى عذوبتها ... فيه من الزهر اشكال والوان
نسيمه ينعش المدفون في جدث ... نحيا به عند لفظ الروح ابدان
سماؤه في ليالي الصيف صافية ... وبدرها حارس في الليل سهران
يرعى النجوم بطرف الليل مرتقباً ... شمس النهار كما يشتاق ملهان
ما اجمل الشمس في لبنان طالعة ... فرق الجبال بها الافلاك تزدان
لبنان يا مهجتي لبنان يا وطني ... تفديك لبنان ارواح وابدان
حلي ومالي حياتي كلها شرفي ... فداك : تفديك اقران وخلان
ماسعد اخطاحظي لو سفكت دمي ... حباً بمن حبه في القلب نيران
إما تسود كما قد كنت من قدم ... إما اموت فدى والقلب جذلان
لقد دحاك اله العرش مرتفعاً ... حتى السحاب فلا يعروك خذلان
ان رام خضفك اقوام فقل لهم ... وراء لبنان آساد وشبان

المشهد السابع

من الفصل الرابع

يوسف كرم يودع لبنان قبل ابعاده عنه

قضى الزمان بهجر الاهل والوطن ... وبدد الشمل والاصحاب واحزني
قضيت بالعز عمري وانا فرحاً ... فجاءني الدهر بعد العز بالمحن
وهكذا الدهر لا يبقي على احد ... حتى يجرعه من حنظل الاحن
فان بكيت، فلا خوفاً ولا جزعاً ... لكن لحزني على الاصحاب والوطن
حزني على وطن فديته بدمي ... حزني على بلد بالحب جنّني
قربت عنه حياتي كي احرره ... وما رضيت ذوي الشحناء والفتن
لقد عشقتك يا لبنان في صغري ... فزاد حبك في قلبي مع الزمن
فكنت عندي عزيزاً لا يعادله ... اعز ما يقتنى من فاخر الثمن
فلا ازال بتار الحب مستعراً ... اني احبك حتى ساعة الوهن
فلست انساك طول العمر يا وطني ... ولست اسلو ولو ادرجت في كفني

فان رجعت تعد للارز رفعته	وان مت فاجعلوا لبنان مندفني
وان مت فاحملوا من غربتي جسدي	وان عظماً تعرت من ثرى البدن
وحركوه تذكيكم بقعقعة	هيهات بنانكم بالسر والعلن
اجابت تلي قضى دهري بفرقتنا	يا ريح دهر بغدر الناس ملتئن
ان غبت عنكم بجسم مثله اسف	تبقوا بقلب بمحض الحب مرتهن
الا ذكروني اذا ما شمسكم طلعت	عند الصباح باعلى قمة القنن
الا ذكروني اذا ما شمسكم افلت	عند المغيب بمرأى بساهر حسن
لا ذكروني اذا اسباعكم لمعت	يوم الوغى فوق هام الصافني القنن
فيا السلام على من عاش مستغناً	في حب لبنان طول العمر والزمن
مني السلام على لبنان في لغتي	مني السلام على لبنان في كفني

البطل الجبيل

خلال الفتوحات العربية . حرر القائد خالد فتح لبنان . كما فتح سائر البلدان . فلم يتيسر له ذلك . لان اللبنانيين . وعلى رأسهم القائد مالك ابو الغيث . وقفوا في وجهه كالاسود . وحدث بعد ذلك ان مات امير لبنان وكبير المقدمين . فاستعد الامير مالك لخلافته . لكنما المقدمون فضلوا عليه البطريرك . وانتخبوه اميراً اكبر . عندئذ تغلغل الحسد في قلب الامير مالك ابي الغيث من جهة . وتملكته شهوة الحكم من جهة اخرى . فواطأ القائد خالداً على تسليم لبنان لقاء تنصيبه اميراً عليه .

وكان من عادة اللبنانيين . يوم يقدم عليه غاز: او يزحف اليه فاتح . اشعال النار على رؤوس الجبال . اشارة للخطر الداهم . فيهب اللبنانيون الى السلاح ليصدوا العدو .

وعرف ببذه المؤامرة قسطنطين بن مالك . فصعد نصف الليل الى محرقة اهدن . حيث وجد اباه يقوم تلك الليلة بمهام الرقيب . فقصد عدم اشعال النار لدى زحف العدو الى لبنان . فلا يلقى عندئذ اية مقاومة . ويحتدم الجدل بين الوالد وابنه . قسطنطين يريد اشعال النار ومالك يريد ان يمنعه عن ذلك . واخيراً يقتل الابن والده ويشعل النار . وبعد مقتل مالك تسلم قسطنطين قيادة الجيش . لكنه لم ينتصر في القتال . فقام عليه الجنود . واتهموه بالخيانة . وحكم عليه بان يربط على عمود يعلوه تمثال والده الامير مالك . حتى يكون عرضة لاهانات الجميع .

وفيا قسطنطين مكبل بالسلاسل على العمد . يكبل لـه الجميع التوبيخ والتأنيب : تصليم اباء انقلاب العمليات الحربية رأساً على عقب بفشل فارس ملثم مجهول ظهر في ميدان القتال وقاد المعركة وانتصر .

وفجأة يتقدم اليهم هذا البطل الملثم الذي ما كان الا مالك ابا الغيث عينه . الذي بعد طعنة ابنه له . فسد جراحه وسرع الى المعركة يخوضها باستبسال وبطولة . تكفيراً عن ذنبه وتخليصاً للبنان .

ساعتئذ ادرك الجميع فضل قسطنطين وتضحياته المكتومة وبطولته المجهولة .

هي تمثيلية استوحاها الخوري حنا طنوس من مسرحية « في سبيل التاج » الذي انشأها الشاعر الفرنسي « فرنسوا كوبيه » عام ١٨٩٥ وهي مأساة رائعة اجمع كبار الادباء والنقدة الفرنسيين امثال « اناتول فرانس » وعضو المجمع العلمي الفرنسي « اميل فاكيه » في كتابه « اراء في التمثيل » و « جول لومتر » في كتابه « خواطر التمثيل » على اعتبارها من خيرة ما انتجه الفرنسيون من عهد راسين وكورناي الى يوم صدورها .

مأساة في سبيل التاج

تدور وقائع في « سبيل التاج » حول الحروب التي وقعت ، في القرن الرابع عشر . بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية : عندما اغارت الاولى على الثانية : واستولت عليها ، واستبدت بها . الى ان ثار البلقانيون على الاتراك وطردوهم . وظلوا يحاربونهم عدة اعوام تارة يغلبون وطوراً ينتصرون . على ان الاتراك لم يستطيعوا اجتياز حدود البلقان فلجأوا الى الخدعة والدسيسة .

ذلك ان البلقانيين بعد موت ملكهم « ميلوش » انقسموا فريقين حول من سيخلفه : فريق يؤيد الاسقف « اتين » وفريق يؤيد القائد الامير « برانكومير » . واخيراً قر الرأي على تتويج الاسقف « اتين » ملكاً . اما الامير « برانكومير » فالوطن احوج اليه قائداً منه اليه ملكاً .

ويتغلغل الحقد في قلب « برانكومير » تغذيه وتذكيه زوجته « بازيليد » التي كانت على اتصال بجاسوس تركي متنكر تحت اسم الموسيقار « بانكو » ،

حتى حملت زوجها على الاستسلام لرغبتها . والاتفاق مع الاتراك برسالة جاسوس « بانكزه » على تسليم البلاد لهم . انتقاماً من الشعب الذي فضل عليه الاسقف « تين » وطمعاً بالعرش ارضاء لزوجته .

ولكنما ولده قسطنطين درى بهذه المؤامرة . وفي الليلة المحددة لتنفيذها . وفيما كان جيش العدو يزحف على البلقان . حاول قسطنطين اقناع والده بالرجوع عن غيّه . فلم يفلح . فلجأ كلا الاثنين الى القوة واستعمال السلاح . مما ادى الى سقوط القائد « برانكوفير » مضرجاً بدمه . اثر طعنة سيف من ولده قسطنطين . فلم يدر بذلك احد . واعتبره الملقانيون بطلاً قضى شهيد الوطن . وجعلوه في قيادة جيش قسطنطين فراح يشن على العدو الغارة تلو الغارة بدلا من الاعتصام في جبله . مما ادى الى وقوع كثير من الضحايا في الجيش . بايعاز من « بازيليد » ارملة « برانكوفير » . على التمرد على قائده واتهامه بالخيانة العظمى . ولما ان يدر نفسه لدى محاكمته او يتفوه بكلمة . حكم عليه بان يشد بالحبال الى دعامة تمثال والده الشهيد « برانكوفير » . عرضة لسخرية الشعب وهزئه واذلاله . الى ان يموت . واذا بـ « ميلتزا » وهي فتاة نورية كان قسطنطين قد خلصها في احدى المعارك من يدي فارس تركي . تفاجئ الجماهير مستلة خنجرها وتطعن به قسطنطين لتخلصه مما ينتظره من العذاب ثم تطعن به نفسها .

وتبقى حقيقة قسطنطين سنين طويلة . لا يعرفها احد حتى دنت ساعة « بازيليد » الاخيرة وراحت وهي في مرحلة الاحتضار تهذي بها حتى ادرك الناس ان البطل الشهيد ليس « برانكوفير » بل قسطنطين الذي ضحى بوالده انقاذاً لوطنه وضحى بنفسه حرصاً منه على شرف ابيه .

٥

هذا ملخص تمثيلية في « سبيل التاج » التي نقلها الى العربية نثراً مصطفى لطفي المنفلوطي بصيغة رواية : ثم حلمي دموس بصيغة تمثيلية .

لكنما الخوري حنا طنوس لبنى تمثيليته : وجعل لبنان مسرحاً لوقائعها وحوادثها ، وادخل عليها من عناصر المفاجآت ما جعل خاتمتها اروع من مسرحية في « سبيل التاج » وابعد مرمى واعمق مغزى .

الفصل الثالث

نفس الليل . فوق جبل الارز
. مالك يأخذ مكان الرقيب ليعطي الاشارة الخاصة الى الاعداء ليدخلوا
لبنان ويتسلم هو الامارة — ابو قسطنطين آت ليسلمه ...

مالك : (يخطو رجلاً قدماً بين الصخور) يا للعجب . فمن هذا المتقدم في الظلام (بالمالي وبعدة) . ايها الجواس . العاس بهذا الليل : ان خطوت خطوة فلك الويل .

قسطنطين : (يدنو) سكن ما بك يا ابي . فما امامك الا ولدك .

مالك : ولدي قسطنطين .

قسطنطين : نعم يا ابي .

مالك : ما اتى بك الى هذا المكان . وفي هذه الساعة ؟ وما بال شفتيك في رجفة . وجسمك في رعشة . وما اتيت تصنع هنا؟

قسطنطين : وماذا تصنع انت بنفسك ؟

مالك : اجبني . فقد طفح كأس حلمي . وفاض وعاء صبري . منذ اتيت تصنع هنا ؟

قسطنطين : اتيت لاقضي الواجب . لاني مطلع على سرك . واقف على حقيقة امرك .

مالك : وما السر الذي تدريه ؟

قسطنطين : ادري بان العدى في الليل زاحفة تريد تحتل غدرًا قمة الجبل
ادري بان الرقيب اليوم يغدرنا ادري بان ابي قد خان واخجلي
فجئت للنار . رغماً عنك اضرمها واطرح الصوت جهرًا هيا بالعجل
فامنع الكفر والطغيان عن وطني وانقذ الدين مع لبنان في عملي

مالك : (على حدة) يا لعدل الله (بالعالي) دع عنك هذا الجنون فهل طرأ عليك طارئ ؟

قسطنطين : بحياتك يا ابي دع عنك عار الكذب . فاني سمعت كل ما دار بينك وبين حميك من الحديث .

مالك : (على حدة) يا للجحيم .

قسطنطين : لا والف لا ، ليس هذا ممكناً فقد خدعتني اذني ، وكذبتني عيني ، ولقد رأيت حلماً هائلاً . قد صدقت : فان الجنون دهاني ، والخبل اعتراني ، فما ارتضيت بالخداع الا تظاهرًا

وتخلصاً من ذلك تقتيل بل تلك حيلة منك لطيفة . فما انت هنا الا تريد التحفظ والترقب . فتعطي العلامة في حينها . فتضرم النار وينقل النهيب على قمم الجبال . فتهب الابطال لحرب والقتال . فتسحق جيش العدى سحقاً . وتسحق رؤوسهم حفاً . فيقضي من مني . وانقذني من هول احلامي . وهيا لاضرام النار واشعال المشاعل فيستنير لبنان من نورها .

مالك : اذن انا متهم وابي في ريبة مني . يتجسس حركاتي ويترقب اعمالي وارث اسي وكمدي . وحيدي ومهجتي . لا يخجل من ان يرمي اباه بالتهم ويشك في نفسه . ان ابي خائن غدار . لكن . متى احتمل الاب ان يتسمع الابن على منافذ بابه؟ ومتى اتخذتك لي مرشداً اتعظ بعظتك وانتصح بنصيحتك؟ ومتى حكم العبد على مولاه واشار الابن على ابيه ؟ ومتى انقاد القائد لاوامر اصغر عبيده ؟ فلا انتازل اذن الى الجواب.

وما انا الا ان اقضب حاجبي فتنفذ مشيتي . واومئ بجفني فالنال منيتي . فاعلم انه قد حسن عندي ان ابقى وحدي هذا المساء في هذا المركز . واما انت فتعود من حيث اتيت . وترجع الى مركزك باقرب الطرق واسرع الحركات . فانصرف . ومتى حسن في عيني اضرام النار اضرمها فابن الخسين ادرى بمصالح الوطن من ابن عشرين ... لقد امرتك فابتعد .

قسطنطين : لقد صدقت اذني . ولم تخدعني عيني : ولست اذاً واهماً . فهنا محل الخديعة والساعة ساعة انجازها : فلن اتزحزح عن مكاني .

مالك : وماذا تريد ؟

قسطنطين : ان تستشط غيظاً فاني ازدري بالغيظ . اذ قلبي بحبك يستعر ملتهباً اضبة : ما اتيت مخاطراً حتى اصدك عن مرامك. فاعتبر

مالك : لا والله : لا يكون هذا ابداً .

قسطنطين : فكر بامرك يا ابي واحذر وخيم العاقبه
فالله ينظر حالنا والنجم فوقك راقبه
اذ بان سرك يا ابي صوبت عنا ثاقبه
فكرت فيما يقتضي حكم الفروض الواجبه

فرأيت ان اشكرك نلاحـ ـ كتمام دون مواربـه
لكن رأيت فظائعاً ـ في حقنـا متعاقبه
عـر وموت مؤلم ـ وابـن يخون اقاربه
مجـد عظيم يمحى ـ وتجرم فضل غالبـه
والشمس تلعن ذكركم ـ من فوق خدك ذاهبه
وتحوم فوق رقادكم ـ غربان شؤم ناعبـه
فرأيت ان اشكو اني ـ فيرى الجميع معائبه
اتركك بحقك ما مضى ـ واظهر بنفسك تائبـه
دعني اضرم نارنا ـ واري المشاعـل لاهبه

مالك : لقد جئت آجلاً فتأسف الآن لأنك خصصت حياتي . فقد كان عليك ايها الابن الفاضل ان تشفي غليلك وتظهر اسرار ابيك وتشهره كيهوذا الخائن فيذيح نعب عينيك . فبئس ما فعلت فقلبك ضعيف يتساءل ويتردد . اما قلبي فنو عزم وحزم فلا يدري عملاً الا انجزه . فمن لا يتلافى الامر عند اوله لا يمنعه عند آخره . لا اسمح لك ان تمس الخرقة .

قسطنطين : اتغدر لبنان ؟ اتخون الوطن ؟ .

مالك : كان الوطن ناكرًا جميلي متناسياً فعائلي .

قسطنطين : وربك : الا تخاف صواعق غضبه ؟

مالك : وحق حسامي : اني لاحصلن الملك شاءت الدنيا ام ابت .

قسطنطين : لربما . لكنما التاج عريض على جبين الخائن : فخف يا ملك لبنان ان يسقط عن رأسك فيصبح طوق حديد في عنقك.

مالك : ابلغت بك القحة الى شتمي : فقد توغلت في السفه والجنون .

قسطنطين : آه : لقد أخطأت فسامحني : وأسأت اليك فاصفح عني اساءتي : لا ادري ما اقول ... فمن ادعو وبمن الوذ ؟ فالي يا ذكرى الحروب السابقة : يا ليالي الانتصارات السعيدة ويا رايات النصر العديدة : اليّ يا يوم خلصت به اني من براثن المنية : اليّ يا قبلاته الابوية : اليّ يا هتاف جنوده المظفرة ويا اكاليله المضفرة : يا مجده القديم : يا عزه السابق : ويا فخره العالي : ويا كل عظائمه الماضية : انتصبي امام عينيه وبيني له فظاعة ما هو مقدم عليه : قولي له : ان

وراياتِ النصر المنصورة على شرفات لبنان تود اليوم لو ترقت ضرباً على وجهه .

قولي له . ان جنوده التي ماتت في ساحة القتال تتشعر عظامها تحت التراب وترتعش من بطون الارض بصوت هائل . الويل لمحاتل . لا . لا يا ابي فانك لا تصل الى هذا الحد من الذل والدناءة . فلا تجعل اسمك المبارك ملعوناً ومجدك السامي في العار مدفوناً (يركع) .

بحقك يا ابي . لا ترتكب هذا الشر الفظيع . ارث حق ولدك على قسمتك . ارفق بدموعي المتهللة . انبذ ورءك هذا الفكر الفظيع . واطرحه في نار المتاعل . فتحرقه وتشوه مع لهيبها . فتذريه رياح الليل كالهباء .

مالك : كفى فانهض .

حلفت بحق الشمس والارض والسما ورب الملا طراً وكل الاباليس

اني اطلب التاج والصولجان . لأثأر من ذلك الشعب المعترق . فغيظك لا يجديك نفعاً . من ينثل فريسة الاسد من مخالبه . لا توسل ولا تبد . لا تحسر ولا تهدد . فقد قضي الامر . واعلم يا صبي . لا يمكن اشعال النار وانا حي .

قسطنطين : حي : فيا لكلمة لفظتها ! حي : فيا لفكر فظيع دار في خلدي .

مالك : اني لا ادري ما تقول . افتحب ان تراني ميتاً ؟

قسطنطين : اقول : لولا سكوتي لمت شر ميتة : وانك باصرارك الآن تستحق موت الخائنين .

مالك : ماذا تقول ؟

قسطنطين : لقد ضاع الوقت سدى : وكاد يصل جيش العدو : وما اتممت واجبي .

مالك : واي واجب ؟

قسطنطين : ان تثبت بعنادك تضر بلادك . فلا يبقى لي حيلة الا في حسامي .

مالك : حسامك ...

قسطنطين : هذا الحسام الذي رد عن جبينك الموت ، هذا الحسام الذي

لا يعرف غير المجد والانتصار . رآك اليوم تخادع الغدار . تخون الوطن ولا تبالي . فرقص في غمده وقد امرني بان اكون لك قاضياً وجلاداً (يمشي نحوه) .

مالك : (يمتشق سيفه) هوذا حسامي فلا يهاب حسامك .

قسطنطين : اني اذود عن حوض الوطن والدين . وادافع عن شرف اجدادي . وانت تقتل ولدك لتخون بلدك . ليحكم الله بيننا ويفصل : فالموت للخائن ...

(يثب قسطنطين على ابيه فيتشبك السيفان برهة ويطعن قسطنطين اباه فيسقط ..)

قسطنطين : آه . وارياد ماذا صنعت .

مالك : حلت عليك اللعنات يا قاتل ابيك .

قسطنطين : الى العلامة الى النار قبل كل شيء (يلمح الشعل ويرى بحرقة تشتعل ويسع لخلاص دق الاجراس وترى الاضواء وتدق الطبول) .

يا عين ربي في الظلام المرجف ... انت الشهود ايا نجوم فانصفي
فامام جثة والدي ومشاعلي ... أنقي اليك اللحظ دون تخوف
واريك نفسي يا نجوم نقية ... من كل تدنيس بهذا الموقف
قد كاد يهلكنا ابي فقتلته ... انت الشهود ايا نجوم فانصفي

الفصل الرابع

المشهد الثاني

(قسطنطين وحده يتقدم بتراخ ووجهه مصفر وهو غائص في تخيل وحزن)

انا موتن من امري ، فلقد احسنت في عملي اذ لم يكن بد من الفتك بابي وكان قتله حتماً علي ، فمن اي اثم ازكي نفسي ؟ امن صنيعي ما ينبغي ، من يؤثمني ؟ لا احد . فليس من الصواب ان اصفر ، وليس من الحق ان ارتعش ... فكان من حقي المحاكمة ومن حقي كان الاقتصاص من الخائن .
غير ان ذكر هذا الفعل يرجفني ، فان لم اكن جانياً جناية فلم يتصبب العرق البارد على جبيني المصفر ؟ وعلام لا اجسر ان انظر الى يمناي ولماذا احسب الماء نجيعاً والخمر دماً ؟

اثم فظيع امامي كان مرتكبا ... فقر من غمده سيفي ، وما احتملا
انقذت ديني واوطاني ، وفي عملي ... ازحت بالسيف عن لبناننا الخجلا

قد دت يبني ذراع الرب ذ صربت ... شهدت نجم السما. فاستصوب العملا
بحر قتل الضواري في شريعتنا ... لست وحشاً ولكن والدي قتلا
اني قتلت ولكن كي اخلصه ... من وصمة العار بين الفند الجبلا
لن كان يعلو جواد العز منتصراً ... وتضرب الناس في اعراله المثلا
ما ذاك الا لاني قد فتكت به ... قبل المعاصي . وقد اخفيت ما فعلا
لا ترثيه . وقلبي لا يؤنبني ... لكن قتيلي امامي شخصه مثلا
اني ارى دمه المسفوك يبتف بي ... في كل حين . فيلقى في الحشا الرجلا
يدوي صداه مدى الايام في اذني ... يا من اباد . بنصف الليل قد قتلا
لا تبرئي ولكن لم يعد مسل ... لي في الحياة . فعيشي المر قد ثقلا
سعى وزراء شذبا في معاركه ... ولست ادرك يوماً للردى سبلا
والانتحار حرام في شريعتنا ... ربي . امتني . فحزني في الحشا اشتعلا

المشهد الخامس

قسطنطين – واصاف

واصاف : (على الباب على حدة) كفاني تردداً . فلا بد من اقناع الفتى : ونيل مأربي .

قسطنطين : ماذا تريد مني ؟

واصاف : اراك يا قسطنطين مصراً على بغضي . فلا حزني ولا معاندة الدهر لك . ولا شيء اثر بقلبك : فانك منذ وفاة ابيك تتحاشى مشاهدتي : وانا مستغرق بسوء ظنك وقلبك ينفر مني لتوهمك بان البغض بيننا متبادل . وانا آتيك الآن لابدد سخيوم الاوهام عن سماء خاطرك .

قسطنطين : انت : ...

واصاف : فيقين لك اني اذود عنك طاقتي واحميك ما استطعت ؟

قسطنطين : وكيف ذلك ؟

واصاف : بتخليصي اياك .

قسطنطين : ومن اي الورطات تخلصني .

واصاف : (على حدة) الآن وقت التذرع بدرع الحزم والاقدام (بالعالي) الا تدري بأي الاخطار انت؟ فان تهورك في المهالك : وانكسارك في المعارك : اثار عليك سخط الجنود : وقد بلغ بهم ان رموك بالخيانة .

قسطنطين : خائن ... انا : ...

واصاف : وكأن الحوادث تثبت هذه التهمة الباطلة . لقد فتح العدو لبنان : واحتل الشرقات .

قسطنطين : (بصوت عظيم) آه .

واصاف : وقد طار الخبر الى كل الانحاء . فيا للامر الفظيع فلا تمر خمسة ايام حتى يصير لبنان في حوزتهم . وتحل الويلات على اهليه .

قسطنطين : لا وحق حسامي . لبنان في خطر وانا متقاعد . انيّ بالسلاح . انيّ يا جنود .

واصاف : لا يجديك الصياح والصياح فجنودك عصاة لا يطيعون .

قسطنطين : أو يتجرأون (تسمع جبة وسيوفهم في الخارج وتسمع اثر ذلك اصوات) .

واصاف : اسمع هذا الفوضاء المختلط . فهذا صوت الجيوش تصيح عليك : فلا يطأ اميرهم هذه الاماكن حتى يرتفع في الجو صوتهم الهائل : الموت للخائن .

قسطنطين : يا للفظاعة .

واصاف : فنفسي الكريمة وحبي لك مع بغضك لي دفعاني اليك حاملاً وسائل النجاة لك ولبلادك .

قسطنطين : انت تحمل الي وسائل الخلاص ؟... فما ينبغي علي اذن فعله ؟

واصاف : ان تنجز العمل الذي فكر به ابوك .

قسطنطين : ... انا ؟ ...

واصاف : اعلم انه كان بجانب نار المشاعل ينتظر قائد الاعداء للمعاهدة .

قسطنطين : ماذا تقول ؟

واصاف : فلو لم يتزعزع عزمه لكان صار ملكاً قوياً مقتدراً بدلاً من تمثال اعمى لا ينظر واصم لا يسمع .

قسطنطين : (على حدة) يا للذكر الخائل .

واصاف : اصغ يا قسطنطين . فاني اعرض عليك نفس الامر .

قسطنطين : اسمعي يا ارض وانصتي يا سماء (على حدة) .

واصاف : ان الصك لا يزال معي وقد شاهدت ليلة البارحة الجاسوس وحرضني على ان اعرض عليك نفس الامر... فلا تغير في الصك حرفاً فهو موقع باسمك واسم ابيك .

(يسحب الصك من جيبه ويسلمه امام قسطنطين) :

قسطنطين : ختم امرة ابي الغيث . (يزيد تفريغه من الخارج) .

واصاف : اسمع هتاف الثائرين وتأكد انك ان لم ترض بحل عيك عقاب الخائنين : فكن اصدق من ابيك واثبت وافتح طريقاً للاعداء . وصالحهم فتصير ملكاً . وانا لا اطلب منك شيئاً الا ان اكون المقرب اليك . قل . ارضى ؟

قسطنطين : يا للدناءة . ويالسفاهة تفرق العقل . اتجسر يا سفيه ان تعرض عليَّ نفس الخيانة . فعليَّ الآن ان اشفي غليلي وابرح لك بسري .

واصاف : ماذا تقول ؟

قسطنطين : وانا ايضاً كنت عند نذر الشاعل . امام ابي وجدي . وسيفي بيدي .

واصاف : انت ؟

قسطنطين : كنت عارفاً بدسيستك يا خائن ؛ وكان اني على وشك ارتكاب الخيانة الفاشلة . فقتلته بيدي هذه .

واصاف : انت ولده . ...

قسطنطين : نعم انا قاتل ابي . وانت وحدك سبب هذا القتل وذلك الفعل الفاشل : وما يميتني هو اني لا استطيع ان اشهرك يا خائن واسود عرضك امام الارض والسماء ؛ لاني ان اعلنت سري الرهيب ؛ دنست عرض والدي : لكني اقدر ان اقول لك بفرح ممزوج بمرارة . اني بددت غبرم اوهامك ؛ وقطعت حبال امالك : واود ان يخترق نفسك الشنعاء سهم تأسف جهنمي اوجع وامر من الخنجر . واني : اخذاً بثأر الطبيعة المهانة والشرائع المتعداة ؛ اوقع فوق رأسك يدي المدماة ...

واصاف : حذار . حذار .

قسطنطين : آه ... احببت العظمة والصولجان ؛ فانزلتك يدي الى احط دركات الهوان . قد خاب سعيك فاصرف حياتك بالاحزان والندم — (يثب الى الخارج) اما الآن فهيا للقتال .

واصاف : توقع شر انتقامي .

مسرحية العسران

لما طالت حرب البسوس التي أثارها جساس بن مرة بين قبيلتي بكر وتغلب. نبغى الملك عمرو بن هند وجمع بكرًا وتغلب واصلح بينهما. وأخذ من كل من العشيرتين مائة غلام من اشرافها. فسرح ملك في احد ايام وكباً من بني تغلب وبني بكر الى جبل طي في امر من اموره فنزلوا بضفة وهي لبني شيبان وتيم احلاف بني بكر. فاذا البكريون يغلبون التغلبيين على ماء فاثروا عليهم.

ولما بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وطلبوا من بني بكر ديات اتباعهم. فابوا اداءها. عندئذ اجتمع بنو تغلب لمحاربة بني بكر واستعد عجابتهم البكريون. وخشي العقلاء نشوب حرب ضروس بين العشيرتين فدعا بعضهم بعضاً الى صلح وتحاكموا الى الملك عمرو بن هند الذي ابى القبول بهذه المهمة قبل ان يوثق بسبعين رجلاً من اشراف بكر يجعلهم في وثاق عنده. فان كان حق لبني تغلب دفعهم اليهم والا اخلى سبيلهم. قبلت بكر بهذا الشرط على ان يرتهن من تغلب ابن سيدها ليكون رهناً الى ان يتم الصلح.

وكان ممثل تغلب سيدها عمرو بن كلثوم؛ وممثل بكر سيدها الحرث ابن حلزة. ولما كان لا يوجد فريق بينة على الآخر اقام الملك الشعر حكماً وفاصلاً بين الاثنين. وبعد ان القى كل من الشاعرين قصيدته حكم الملك للحرث بن حلزة بالتفوق واخلى سبيل السبعين رجلاً بكرياً؛ مبقياً رهنا عنده زهير بن عمرو بن كلثوم الذي ابدى من سوء التصرف والعناد ما اغضب الملك فحاول تذليله ثم قتله. واخيراً يخلصه والده ويقتل عمرو ابن هند.

مقتطف من المسرحية

(الملك عمرو بن هند وحاشيته)

المشهد الرابع (الفصل الاول)

عمرو بن هند : (لجلسائه) من ترون تأتي به تغلب لمقامنا هذا؟

خالد : شاعرهم وسيدهم عمرو بن كلثوم اعز الناس.

عمرو بن هند : فبكر بن وائل؟

خالد : لا تفرج بكر بن وائل الا عن الشيخ الاصم يعتز في ربطه تيهاً؛ فيضعها على عاتقه؛ اعني الحرث بن حلزة.

عمرو بن هند : من افضل السيدين؟

خالد : اخسرت افخر العرب . وعمرو بن كلثوم اعز العرب نفساً . واكثرهم امتناعاً . وانقاهم حسباً .

عمرو بن هند : هل تعلمون احداً من العرب تأنف امه من خدمة امي ؟

خالد : نعم . ام عمرو بن كلثوم .

عمرو بن هند : ولم ؟

خالد : لان ابناها مهلهل بن ربيعة . وعمها كليب بن وائل اعز العرب . وبعلها كلثوم بن مالك افرس العرب . وابنها عمرو وهو سيد قومه .

عمرو بن هند : وهل تعرفون احداً من العرب يأنف من ان يخضع لي متذللاً ؟

خالد : عمرو بن كلثوم .

عمرو بن هند : سوف تعرف عزة آل كلثوم بعمرو وابنه زهير .

من المشهد الخامس

(عمرو بن هند ، عمرو بن كلثوم مع قومه ، الحرث بن حلزة مع قومه. بعد ان التقى عمرو بن كلثوم والحرث بن حلزة قصيدتيهما)

عمرو بن هند : لله در ابن حلزة . مدح عمرو قومه بالافعال . وعظم الحرث ذويه بالفعال . انقاد ابن كلثوم الى عواطف القلب : والعواطف ترمي الى المقالاة والاغواء . واستنار ابن حلزة بمصباح العقل : والعقل يهدي الى الحق والهدى . التغلبي اصول واقول : والبكري اعتقل وافعل . عمرو في الكلام ابلغ وفي النظم أشعر . والحرث في اداء الادلة احذق : وفي ترجيح الحجة أمهر . رصع التغلبي معلقته بضروب البيان من مجاز واستعارة وكناية وتشبيه . ودعم البشكري خطبته باصناف البرهان والتبيان من تبرئة وتأثيم وتذليل وتعظيم . ذكر التغلبي مآثر تغلب ومآثرهم فرفعهم : ولم يذكر لبكر معايب فيضعهم . وذكر البكري مناقب بكر ومثالب تغلب فرفع بكراً ووضع تغلب . ادن مني ياحرث وصافح يدي يا اشعر الشعراء (يدنو الحرث يصافح الملك) قد وهبت لك السبعين بكرياً الذين كانوا رهناً عندي ووهبت لك ولدك النجيب . واما انت يا زهير فتبقى رهناً عندي وفاءً للعهود والمواثيق .

(يتطاير الغضب من عيني عمرو ولكنه يضبط نفسه).

زهير : ركبت الشطط في حكمك ايها الملك وما انصفت .

عمرو بن كلثوم : تعديت طورك يا بني فالزم حدود الادب .

عمرو بن هند : لو لم يكن لك معذرة في حداثة سنك وشفاعة في مكانة ابيك . وحرمة الجوار . لاقتصصت منك اقتصاصاً لم يقتصه ملك عادل من سفيه جاهل . وانت ما يدريك الشعر اي شيء هو ؟

زهير : نحن بني تغلب نولد جميعنا شعراء : ولا يسوغ ان يحكم بين الشاعرين الا الشاعر . ان شاعر تغلب جواد يجري في مضمار الشعر فلا ينقطع نفسه حتى يبلغ الغاية سابقاً . وشاعر بكر متقطع الانفاس يلبث عياء في الحلبة ولا يصل الى الغاية الا جاهداً سكيناً .

ظليم : شاعر تغلب يقرع الاسماع بزجرة الالفاظ والمباني . وشاعر بكر يملأ العقول بسديد الافكار والمعاني . شاعركم نسمع له جعجعة ولا نرى له طحناً . وشاعرنا نرى له طحناً ولا نسمع له جعجعة .

زهير : شاعرنا رجل بأس وحماسة . اذا استعرت في صدره نار الحمية اثار شرارها في صدور سامعيه . فتكروا كما يتكر : وشعروا كما يشعر : فكأنهم والشاعر كثيرون في واحد : بل واحد في كثيرين . فان طرب يطرب : وان غضب يغضب : وان فاخر يعجب : وان غالب يغلب . وشاعركم شيخ بردت همته : وجمدت حميته : فعمد الى الدهاء : والدهاء سلاح العاجز . فذكر احاديث مر عليها الدهر وانطلت حيلته على الملك عمرو .

ظليم : الى الحيلة والدهاء لا يعمد من كذب وفند . ذكر ابيك لقومه مفاخر ومآثر زاعماً واهماً : قائلاً لا داعماً . فند اني تلك المزاعم بايراد الحوادث والشواهد . اني لم تخمد حميته . ولم تبرد همته ، لكنه رأى نار الحمية الفارغة استعرت في صدر ابيك فصب عليها ماء التهكم البارد ليطفئها .

زهير : اني تنسه اية تأنى التمليق . فلم يتصاغر امام الملك متذللاً مادحاً ملقاً ذاكراً خدم قومه ، كما فعل الحرث . فلم تنفعل الحرث ايها الملك الا لانه مدحك وذكر نجدات

قومه تذبيت . وذكر في ايضاً خصلان تغلب للملك .

ضيم : قوم بيت يخذلون الملك في جميع حوله . وقوم ابي ينصرونه في جميع حوله . فأي القومين افضل عند الملك في رأيك ؟

زهير : لكل من نفس الشيخ المضيء المتألق من نفس الفتى المتحمس . ابن وقفة مزارع الجامد من وقفة الشاعر المتحمس . خسرت مخبر مسبب . وبي مشهد مغيب .

ضيم : ليس هذا مقام الشد وضرب واعجاب . بل مقام البت وحجة وبرهان . وهل خصية في مقدمة افضل ام الروية .

زهير : من جمع في شعره الفخامة وجزالة الى السهولة والسلاسة . الا تعلم ان الشعر صورة الشاعر؟ الا ترى نفس ابي مصورة في كل بيت من قصيدته ؟ فقوة شعره شدة وقوة . ومتانة التراكيب هي متانة عزمه .

ضيم : من جمع في شعره تفنن الشاعر وتروي الحكيم؟ الم تر في كل بيت من قصيدة ابي خبرة الشيخ المحنك وفطانة الحكيم المتروي ؟

زهير : من جمع في موضوع واحد شتات المعاني المشتتة وضمها الى معنى واحد؟ اي مزية يفتخر بها الاقوام لم تدخل في قصيدة ابي؟

ظليم : واي فضيحة تسب بها القبائل وتعير بها العشائر ، لم يلمح اليها ابي الحرث ؟

زهير : فقد حوت منظومة ابي القوة والجمال ، والفضل والكمال ، والحسب والنسب . والنفوذ والاباء والكرم والخصال الشهاء والشجاعة والاقدام ، وكل ما يعظم الاقوام بابدع الكلام .

ظليم : وخطبة ابي حوت عقلاً راجحاً ، وسهماً جارحاً ، وفخراً مادحاً ، وهجاء قادحاً .

عمرو بن هند : كل فتاة بأبيها معجبة . لقد اتيت يا فتى عن حسن بيان وبلاغة منطق . لكنك تطاولت الى ما فوق قامتك . وارتفعت الى اعلى من هامتك . على ان حكمنا باق . تبقى رهيناً عندنا حتى يتبين لنا عز ابيك وفضل ذويك . اتبعني يا زهير .

زهير : ان رضي عمرو بذلك رضيت . .

عمرو بن كلثوم: اتبع المَلِك يا بني. والله يفعل ما يشاء ويريد.

الشمس : (يدخل خارجاً) هذا رجل ثري فعلي بحضور مقتولي ابن هند لديه (يخرج الجميع).

الفصل الثالث

(مقفع من الشعب العربي)

عمرو بن كلثوم: لبيك لبيك يا زهير. حياتي فداك. ورجالي لك. (يمسح سيفه) ومجدي في رقاب عداك. بل حياتي ورجالي ومالي وولدي لكم أيها العرب.

انزعي عنك برقع الخداع يا أمة العرب. واخلعي من عنقك نير الاستبداد يا أمة الاحرار. لقد حان تحرير العباد. وباد زمان الاستبداد. تصلح الحرية للعرب. والعرب للحرية يصلحون. حرام على الطغاة يستعبدون ملوك الصحراء وأبناء السماء ونسور الفلاء. خلوا الفضاء لفارس الزرقاء. ما ابهى البدوي حرًا على ظهر جواده. بشماله العقال وبيمينه البتار. يطير على سابح في بحار من رمال احمر من جمر النار. يباري في جريه الرياح ويسبق النسور والعقبان. يطارد سباع البر ويداعب غزلان الغابات. حرام على المستبدين يستعبدون ملوك الصحراء. خلوا الفضاء لفارس الزرقاء. ما اسمى البدوي حرًا في الليل. يمتد جسمه فوق الثرى وترتفع همته فوق الثريا. يناجي البدر ويسامر الكواكب الطوالع. فراشه على رمال الصحراء وغطاؤه قبة السماء. يتلاعب بشعره النسيم ويبلل جسمه ندى الاسحار. ويطرب مسمعه حفيف الشجر وفحيح الحيات. يهزه صليل السلاح وصهيل الخيل زئير الأسد وعواء الذئاب، كما يعجبه شوارد الافكار في سكون الليل؛ وتراكم الاحلام في سبات النوم. حرام على المستبدين يستعبدون ملوك الصحراء. خلوا الفضاء لفارس الزرقاء (يخرج).

المشهد السابع

(مشهد اخاكة)

عمرو بن هند : بلغتكم سفاهة ابن عمرو. جاملنا الجاهل فما زاد الا جهلاً وحمقاً وجرأة. فما رأيكم فيه؟

خالد : نظر ثاقب في تعاقب البعد ورؤيه في الامور اصدق . لا بد لي ان يعاقب السفيه معاقبة تنهى الجهال وتروع السفهاء.

الحرث : بشر رأيا رأيك فما عقلت وما عدلت . تغري الملك بابن سيد العرب . احلم في كل المواطن ارفع وانفع ايها الملك . والعفو عند المقدرة اكرم واعظم .

خالد : احلم يجرئ العبيد على مواليهم.

الحرث : الظلم ينفر الشعب من الحكم .

خالد : ان عفو الملك ذهبت سطوته .

الحرث : اذا حار الحاكم تقلقلت حكومته .

عمرو بن هند : تحمي ابن خصمك يا حرث

الحرث : بل احمي دولة الملك وامة العرب .

عمرو بن هند : ما على دولتي او امة العرب من قتل فتى حق ؟ اليست في الرقاب احقابا بمخلب انتقامي .

الحرث : لله ولاصحابها وليست للملوك الرقاب . اتق الله في عباده ابنت اللعن ولا تثر ثائر العامة . فالشعب رهيب في غضبه. ما الرياح العاصفات اذا ثارت تهدم وتخرب ما تلاقي على منبها . لا تبقي ولا تذر : تنقض البيوت وتقلع الشجر. وما البراكين اذا فار فائرها وانقت بحممها على المدن والقرى تدمرها وتلاشيها . وما البحار اذا هاجت وماجت بامواجها تغرق السفن في لجها : اشد ضررًا من الشعب عند تغيظه وحنقه . الشعب رهيب في حنقه .

عمرو بن هند : مثلي لا يتخوف الشعب ولا يرهب العامة . العامة جماعات عميان معقودون الى حبل : يقودهم بصير يسيرون خلفه حيثما سار.

الحرث : ولعل ابن كلثوم ذلك البصير .

عمرو بن هند : الشعب غابة تردد صوت مغن يتغنى في الليل : وكيف يراجع هتاف هاتف وصراخ صارخ .

الحرث : وربما كان ابن ليلى الصارخ بهتاف الحربة .

عمرو بن هند : الشعب مطية يركبها فارس يشد بزمامها ويرخيه حسب هواه ويركضها على رضاه ...

الحرث : واذا جمحت المطية : جنحت براكبها الى المهواة واوردته صريعاً قتيلاً ...

عمرو بن هند : الشعب قطيع غنم لا عقل لها . يسوقها رجل واحد بالسلخ فتساق . يعصر لها الراعي فتسمع . ويمشي معه فتمشي وراءه لا تدري الى اين السير .

الحرث : وما ادراك ان لا يكون الراعي ابن كلثوم .

عمرو بن هند : العامة صبيان لا يعقلون تزمر لهم فيرقصون وترقص لهم فيصفقون .

الحرث : افلا يكون الراقص عمراً ؟

عمرو بن هند : الشعب ظل الغالب وخيال المنتصر . يجعلون الحق بجانب التوفيق كيفما مال السعد مالوا . يخذلون اليوم من نصروا امس وينصرون غداً من خذلوا اليوم . الشعب مع القوي الواقف على الضعيف الساقط .

الحرث : وربما قوي عمرو . وضعف عمرو . ووقف عمرو . ونام عمرو .

عمرو بن هند : كفى يا حارث تخوفني وتتشاءم . فلا بد من ارهاب القوم باشد العقاب . لا يبلغ عمرو بن كلثوم ؛ منها تطاول . انى اعلى من قدمي . فوالله لخنصري اغلظ من متنه . وشمالي اجود من يمينه . ولاخمصي اشرف من رأسه ؛ وخطأي اصدق من صوابه ؛ وصمتي ابلغ من كلامه ؛ وامي افضل من امه . وخدمي خير من سراة قومه . فوالله لو هززت بيدي عصاي مات من عصاني . ولقد عرف الدهر بطشي فما عاداني . فما انا الا مقطب جبيني فترجف الجن في القطبين . ولسوف تعلم الاقوام من افضل العمرين . عليّ بزهير (يقف جندي)

الحرث : وما انت صانع .

عمرو بن هند : والله لاجعلنه عظة للمتعظين وعبرة للمعتدين . الست انا السيد والعرب العبيد ؛ اصنع بهم ما اشاء واريد . ان حسن عندي امت . وان راق بعيني احييت . والله لاطأن بسنابك خيلي كل من لا يرى رأيي ويقول بقولي .

الحرث : على رسلك ايها الملك . ان للعز سكرات كما ان للموت غمرات . وتلك السكرات يعقبها حسرات . اني عاهدت الله ونفسي ان لا اداهن في مشورة ولا اخادع في نصيحة . لا تبغ ايها الملك فان البغي وخيم المرتع . ولا تظلم فان الظلم

سيف الغلب. لا تثر الضعائن بقتل البريء. ولا تسر القلوب بذلال الرعية. فان في صدور العرب حمية تعمي مراجيلهم. تأنف من كل مستبيح. وان تحت الرضاء جمرًا. الخف لفح يضرمها. والذل نسيم يسعرها. وان في طيات الصدور عقارب وحيات. فبنو غسان واقفون لك بالمرصاد. يتوقعون الفرص لتوثب ويترقبون الساعة لادراك الثأر. وبنو تغلب لا يصبرون على قتل ابن سيدهم. وهتك حرمتهم. لا تفرق كلمة العرب ايها الملك ولا تضعف امرهم ارضاء لمولك. فان الحرب مطية: من ركب متنها ينعطب. ولا تزعزع اركان الملك فطرة صدرت عن قوى دينه الشريف وربه العز. فحلم الملك اوسع وعدله اعظم. وان كان لا بد من التكفير للسيابة الملوكانية فدونك الشيخ العاجز فقد جاوزت التسعين ولم يبق مني خير ينتظر. فاهدر دم الشيخ الفاني. واصفح عن الفتى الغرم. فيسلم عرضك من سهام ملام. وتصون امة العرب من الشقاق واخلاك. وان كنت غير كفوء لابن عمرو فيالك ابني العزيز. فاطعن صدره واتق شر البغي وعاقبة الظلم.

خليم : هاك صدري ايها الملك فاطعن نحري واسفك دمي واصفح. عن زهير.

مسرحية امير الارز

هذه المسرحية مقتبسة عن رواية «حبيس بحيرة قدس» للاب هنري لامنس اليسوعي: وتدور حوادثها حول انتخاب الامير رزق الله بن جمال الدين بن سيفا اميراً على لبنان. وكان مزاحمه على هذا المنصب ابن اخيه المقدم عبد المنعم الذي كان عالقاً بهوى راحيل التي اقترنت بالمقدم زين. ولما ضاعت من بين يديه الامارة: وقتل راحيل: راح يتآمر على لبنان مع «جوسلين» سيد قصر القليعة ساعياً لاشعال نيران الثورة على امير الارز وبث روح العصيان في لبنان.

وتنتهي الرواية بانتصار الامير رزق الله وبقتله جوسلين عدو لبنان.

مقتطفات من مسرحية امير الارز

المشهد الثامن من الفصل الاول

عبد المنعم – جوسلين – تنتائيل

عبدالمنعم : خسرت الامارة وخسرت راحيل فماذا ارجو بعد من حياة فعلى الدنيا السلام .

(يمثل صحواً ... يريد ان يتحرر ليسمع جوسلين وتنتائيل)

جوسلين : رويداً وأرد لك الامارة .

تنتائيل : رويداً وأرد لك راحيل .

عبدالمنعم : كلام فارغ لا طائل فيه ومواعيد عرقوبية . وكيف تردان عني امس الدابر والدهر الغابر ؟

جوسلين : بالخداع والدهاء والتحريش بين الصدور وتهييج الاجانب .

تنتائيل : اما انا فباحبولة والمكر والعرافة والسحر .

عبدالمنعم : خابت كل اماني . وحبطت كل مساعي . فلم يبق لي حيلة الا بهذا الخنجر .

(يحاول ان يطعن به صدره فيثب عليه جوسلين وتنتائيل قائلين) .

جوسلين وتنتائيل : لا تفعل لا تفعل .

(يرخى الستار)

من المشهد الاول (الفصل الثالث)

جوسلين وتنتائيل وعبد المنعم

جوسلين : هات ما عندك من الاخبار يا تنتائيل .

تنتائيل : قامت قيامة العرب ، وثار ثائر الشيعيين في البقاع ، وهاج دائح النصيرية في القنية ، فقد ابلغتهم رسائل السيد جوسلين وقد حوت ما حوت من تحريش بين الصدور على امير الارز وتنفير القلوب منه ... وقد شرحتها اوفى شرح وابنت ما جاء فيها من شرهه وطمعه وطموح نفسه الى بسط سلطانه ونشر لواء الارزة ليس فقط على الجبال والهضاب والبطاح والسهول الممتدة بين اللبنانين الشرقي والغربي من جبل اللكام الى جبل الكرمل ومن وادي العاصي الى ما وراء الليطاني وهي حدود لبنان الطبيعية ، بل يحاول ان ينتزع ما تصل اليه

يمد من ارض سورية الى لبنان. فاقام هذا الخبر الشوم واقعدهم فهاجوا وماجوا وضجوا وعجوا ورواح وأتيهم وغدا غاديهم وتعاهدوا وتواعدوا وتكاتفوا وتأهبوا للقتال وتألب جمعهم غير بعيد عن دير الاحمر وهم متحفزون لزحف على الارز وبهاشة الامير في عقر داره.

عبد المنعم : وما عدد تلك الفئة؟

تنائيل : يربو على العشرين الفاً.

عبد المنعم : فلا شرو ان الكفة الراجحة في جانبهم.. غير ان اللبنانيين آساد حرب ورجال ضرب فلا يساقون الى الذبح كالخراف.

جوسلين : الكثرة تغلب الشجاعة.

عبد المنعم : فان قوي التحالف على لبنان فما يكون مصيره؟

جوسلين : تصير الامارة اليك.

عبد المنعم : وما يكون مصير عمي وزين؟

جوسلين : يقتلان شر قتلة.

عبد المنعم : أتيق الى أن اراهما صريعين يختبطان بدمهما. فطالما دبرت المكايد لعمي الامير لاستقل بالامارة؛ ولخصمي اللدود لاستبد براحيل. فحبطت كل مكائدي وذهبت مساعي ادراج الرياح... فما الحيلة لاهلاك زين؟؟ فما زال هذا الخصم حياً فلا حيلة لي براحيل.

جوسلين : نار الحرب المستعرة تلتهمه؛ ورماحها الطاحنة تطحنه. فلقد تدبرت مع تنائيل كل وجوه الحيل والتدبير للتخلص من الامير والمقدم والحيس.

المشهد الحادي عشر

عبد المنعم. جوسلين. تنائيل

تنائيل : ما احسن بختك واسعد حظك يا جوسلين فما انت فاعل؟

عبد المنعم : فما انت صانع؟

جوسلين : اني اصنع ما يرقص له ابليس طرباً ويبكي له الملاك غماً. اني شانق مالكاً، وعاقداً حبلاً يوطم الاب يوحنا الحيس ويفضحه ويصمه بكل وصمة عار ويحكم عليه بالنفي المؤبد في مكان لا يعلمه الا الله وجوسلين، واضرم النار في دير

مرت ثقلا فتتهم الدير والكنيسة والمكتبة . انا جوسلين وترين لمن يعاند جوسلين .

انا جوسلين نار من جهنم . وفي صدري لهيب البغض مضرم
امير الارز لا تطلب صراعي ولا تعجل باذلالي فتندم
فليث الغاب ان تعرجه يخرج فويل للسلا ان هيج ضيغم
فأنت أيسا فتى حطب لناري وهل حطب من النيران يسلم
فهذا اليوم من ايام سعدي بهذا اليوم من اعدائي انتقم
هلم معجلاً يا يوم ثأري فيوم الثأر في عيني معظم
يقول الناس ما احلى هزارا بصوت الحب في الدنيا ترنم
وما أبهى مطرقة توافي مبشرة بسلم قد تعمم
وسرباً من حمام في الاعالي حوالى حصنه علنى ودوم
وما أشى السنونو في ربيع تصرصر ثم ثرثر ثم حوم
وما اتقى النجوم بصفو ليل تضيء سنا فيجلو حندس الغم
وما احلى عيون الام ترنو لطفل نائم بالمهد تمتم
وما اهنا الجلوس بقرب نهر على مرج بازهار منمنم
تسيل مياهه متدفقات وفوق الايك طير العز زنم
تروح وتغتدي متلفتات ظباء جيدها فتن المتيم
فيصبح من يؤم النهر صبا بحب انظية الحسناء مغرم
لقد غلطوا فما احلى واشهى نعاب اليوم في قصر تهدم
وما ابهى غراب البين ينعى هلاك القوم في سيل عرمرم
وما احلى الغيوم السود تهمي بطوفان يغرق نسل آدم
وقعقعة الصواعق قاذفات جماجم تصبغ الساحات بالدم
وما أشهى فحيح الصل يسطو للسع قاتل اذ ينفث السم
اميز الارز مهلاً في عناد فأنت اليوم يا مغرور معدم
ايا لبنان تبكيك البواكي فطير الشؤم في عليائك خيم

مسرحية شهداء نجران

عبد العزى يقدم على قتل عبدالله ابن الحرث ملك نجران يخنجر اخيه عبد شمس ليوقع الفتنة بين الملك وابنه . فما كان من الحرث الا ان غضب على عبد شمس لقتله اخيه لو الاشتراك بقتله ليؤمن لنفسه خلافة والده على سدة الملك فحرمه حقه بالميراث وبالملك لصالح ابن القتيل عبد المسيح .

حقد عندئذ عبد شمس على والده ملك وراح يثير القبائل عليه. وبإغراء من عبد العزى جد ذي نواس ملك حمير اليهودي يستنجد على والده فابى رغبته بعد ان جحد دينه المسيحي وتبنى نصرانية الى بني حمير.

ولما استولى الملك ذو نواس على نجران خير الملك وسكان نجران بين كفر بدينهم او احرق حرقاً. فمسك النجرانيون بدينهم فاستشهد منهم حرق وسبعون الفاً من النصارى.

مقتطف من المسرحية

المشهد الاول من الفصل الاول

في قصر حرث ملك حمير

حرث . (وقد) :

ايضمر لي دهري العداوة دائماً	ويحقني ظلماً بكل المصائب
يقولون لي : والدمع يخرق مقلتي	تسل . ولا ترهب جيوش التجارب
فكيف التسلي والاسى يجرح الحشا	بسيف صقيل النصل ماضي المضارب
فجعت بعبد الله مجد عشيرتي	وفخر الملوك الاعجدين الاعارب
وقاتله . وافجعتي يوم كربتي	اخوه . فيا رباه . ضاقت مذاهبي

(يسكت متلاشياً من كربه . من شدة الحزن . وبعد سكوت مدة يرفع رأسه كرجل ينفض من سبات عميق)

قايين . كيف قتلت اخاك ؛ قايين . قايين : اين اخوك ؟ ان صوت دماء اخيك صارخ الي من الارض ... يا عبد شمس يا ابناً عقوقاً ؛ جرعت ابـاك المرائر . (ينفض ويرفع يده نحو السماء) والآن ؛ فلتهبط عليك من السماء (يرد يده بغتة ويخبئ رأسه خوفاً) ولدي فبئل اللعن ولدي ؟ ... (يركع) ربي ؛ أسأت ؛ فقد عجل غضبي فيب حزني . وها اني جاث امامك ؛ مسترجع مقالي ؛ مستغفراً عما فرط مني . فسامحني وليشمل عفوك ولدي . فلاتلعنه ؛ كما لعنت قايين ؛ قاتل اخيه . وعلى كل حال ؛ لتكن مشيئتك ؛ يا ذا الجلال ؛ وليتقدس اسمك ؛ ايها القدوس . (ينهض) لكن لم تنجل الحقيقة الى الآن . فعبد شمس اقسم وحلف مبرئاً نفسه من دم اخيه عبدالله انما خنجره المرسوم عليه اسمه ؛ وجد ملطخاً بالدم ؛ على جانب القتيل . وحين مات اخوه لم يظهر امارات الحزن والاسف ؛ بل ساقه الطمع الى ان حرك السماء والارض ؛ وهيج شعبي على الثورة ؛ ليحملني على ان

التنازل له عن الملك . واحرم ابن اخيه . حفيدي . عبد المسيح ... ولئن حلفت على ان لا احرم صاحب الحق من حقه ابداً . ولا يتصل بي الحمق ان اسلم تدبير ملكتي الى فتى جاهل يتقلب كيفي تقلبه الاميال والاهواء ونحن في ايام ضيقة . واوقات حرجة . اسمع صوتاً (ينفخ) هذا حفيدي عبد المسيح مع معذبه فيسون . انه آت الي كعادته قبل النوم فيعزيني بتلاوته الرطبة ويسليني باقواله العذبة واشعاره المنتخبة .

المشهد الثاني

الحرث : عبد المسيح : فيسون

عبدالمسيح : (يدخل بفرح صياني يغني)

شوقي : وجدي : روحي جدي عزّي سندي : فرحي : وجدي
حبي قلبي . قلبي عربي نفسي تفدي : روحي افدي
ابلغ جدي اوج المجد

(يرتمي بين ذراعي الحرث مقبلاً يديه)

الحرث : (يقبله عاماً اياه الى صدره) ولدي وروحي وبلسم جروحي ؟

عبدالمسيح : (يلمح الحرث باكياً) مالي اراك تبكي . اي جدي ؟

الحرث : هذه دموع فرحي واستبشاري فيك يا ولدي .

عبدالمسيح : لا يا جدي : فلمعك حزين : وقلبك حزين : ففي صدرك زفير الحسرات : وعلى جبينك للغم علامات . فقل ما يؤلمك ؟ فقد هدت الاوجاع بدنك : وذهبت الاحزان ببهاء حسنك وجمالك .

الحرث : طب نفساً يا ولدي وعش قرير العين : ولا تغتم لشيء بل نم ناعم البال . (على حدة) ما اشبهك بابيك . ما رأيتك مرة الا ذكرته فتقطعت كبدي .

عبدالمسيح : قل لي ما يروق بعينيك فاصنعه . نعلي اقشع عن قلبك الهموم فيستنير وجهك بنور الافراح ... فهل تحب ان تمتع البصر بمشهد الفلك الدوار : وتروح البال بضياء انوار تحاكي النهار فترى القبة الزرقاء : والسماء الحسناء والنجوم تسطع : والكواكب تلمع والبدر يطلع ؟

الحرث : لا تطيب نفسي بهذا .

عبدالمسيح : هل تطيب نفسك بالاشعار فانشدك ابياتاً في وصف ليلة طلوع القمر ؟

اخرث : قل ما احببت .

عبدالمسيح : وقبة بلور تلالى صفاؤها فزادت ضياء باللآلي المواضع
مرصعة مرآتها بجواهر تشع بانوار النجوم اللوامع
مصابيحها تملي النواظر بهجة تدور على الافلاك في حسن طالع
وبدر بديع الوجه . سام بحسنه يضيء كجدي كل هذي البدائع

اخرث : بورك لي فيك يا ولدي . فانت رجائي وعزائي .

فيمون : انشد ما حفظته اليوم في الدين النصراني .

عبدالمسيح : عمى دين المسيح سلام ربي فسد يانكون يا دين المسيح
فانت الشمس تطلع كل صبح تنير الناس بالنور الصحيح
فكم بددت من وجه البرايا دياجي الكفر بالقول الفصيح
وكم خلصت نفساً من شرور وكم عزيت من قلب جريح
ايا دين المسيح علوت مجداً فما اسماك يا دين المسيح

اخرث : حييت لي يا بني . ودمت عزاً لذويك . ومجداً لاسم ابيك. افتحب هذا الدين ؟

عبدالمسيح : فدتك المهج . اي جدي ومولاي . فكيف لا احب : اعزك الله : ديناً رضعت افاويقه مع حليب امي ؟

اخرث : واذا اثار علينا ذو نواس ملك حمير حرباً : كما فعل بالقبائل وخيرك بين الموت والجحود فما انت فاعل ؟

عبدالمسيح : اختار الموت على الجحود .

اخرث : وان عذبوك افلا تكفر ؟

عبدالمسيح : فلو عذبت في جب قبيح ولو اودعت حياً في ضريحي
لما انكرت رب امجد يوماً وما اشركت في الدين الصحيح
انا عبد المسيح باذن ربي ومن يقوى على عبد المسيح ؟

اخرث : ما اسمى عواطف قلبك . فدم بني في هذه الشواعر الدينية . والله اسأل ان يحفظ لسانك من الخطل . وقدمك من الزلل . وامتعني بك المولى الحياة كلها .
واما الآن فعد الى غرفتك فقد دنت ساعة رقادك .